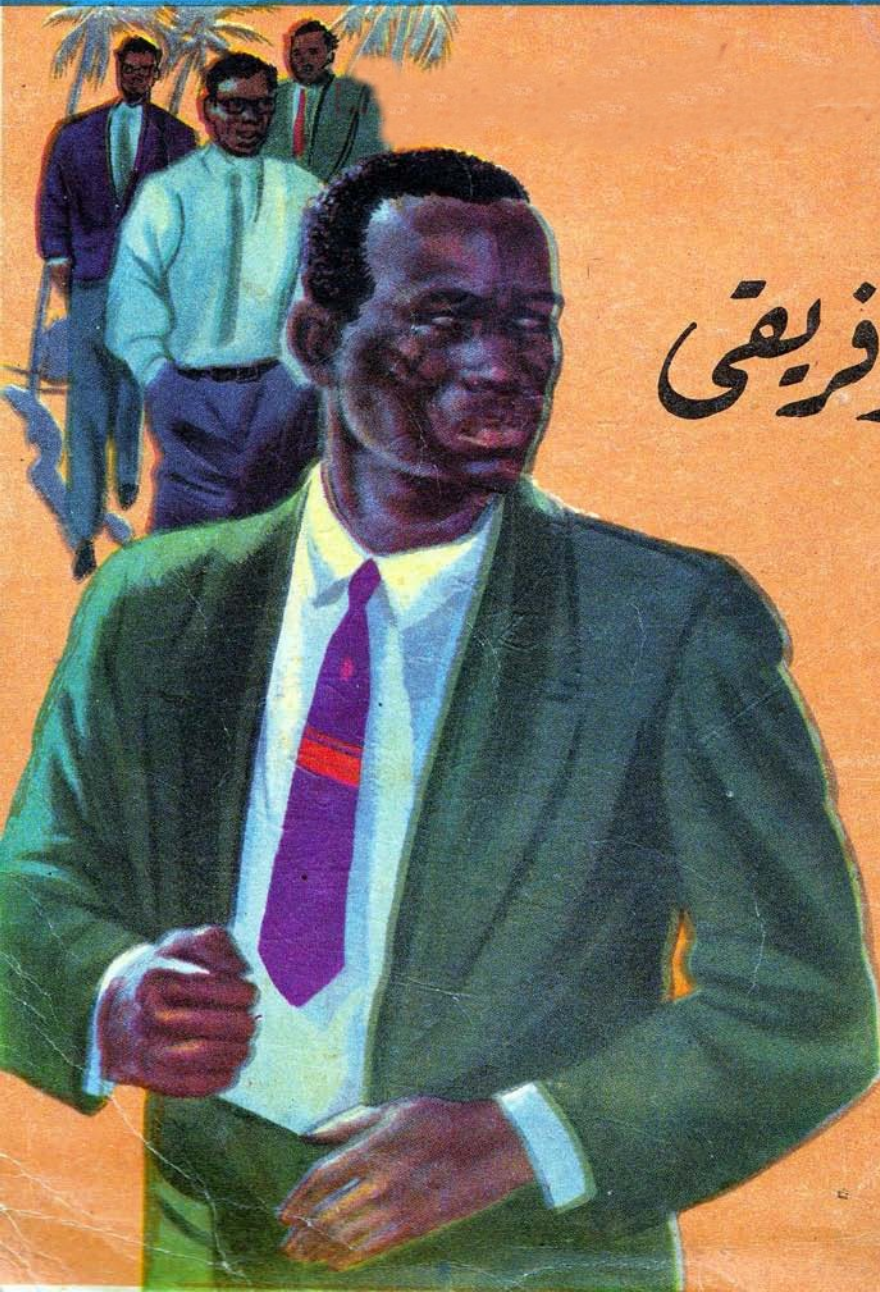
روايات عالمية

من الشرق والغرب

الإفريقي



٥٠ مليما

روايات
عالمية

العدد رقم ٢٤٨

الافريقي

للكاتب الافريقي
ويليَم كونتون

ترجمة
حسن ابراهيم

بين عالمين

كان « كيسيمى كامارا » واحدا من هؤلاء الاطفال الذين ولدوا فى الغابة الافريقية . وقد وقع عليه الاختيار من بين الكثير من اخوته واخواته ليتلقى العلم فى مدارس الارسالية ، وقد رشحته عقليته المتسائلة المنقبة الباحثة وذكاؤه الوقاد لاحدى المنح الدراسية التى هيأت له سبيل الالتحاق باحدى الجامعات البريطانية .

وظهرت فى حياته مأساة حب اليمة ، عصرت قلبه عصرا ولفحته الما . وفتحت عينيه وقلبه الى تلك الهوة الواسعة من الخلاف بينه وبين عالم الرجل الابيض .

وعاد الى أفريقيا وفى نفسه رغبة واحدة ، هى أن يقف الى جانب قومه فى كفاحهم . فتخلى عن ملابس الرجل الابيض واقسم أن يكون لقومه دون سواهم .

وبدأ بالاشتراك مع حفنة من الشباب المتحمس فى تكوين حزب سياسى أصبح بما وصل اليه من قوة وما حظى به من تأييد، رمزا للأمانى الوطنية التى تتمثل فى رغبة الشعب فى أن يعيش حرا وعلى قدم المساواة فى عالم يضم البيض والسود .

- ١ -

اسمى كيسيمى كامارا

شهدت قرية « لوكو » احدى قرى مستعمرة « سونجهاى » احدى مستعمرات غرب أفريقيا البريطانية ، مولدى فى فصل الامطار العالية .

ويعيش والدى على فدان من الارض الحمراء المجهدة حول كوخنا ، وعلى صيد الاسماك من مجرى مائى ضحل قريب من كوخنا أيضا . ويعتصر من هذين المصدرين . أرزاقنا .

وأنا الابن الثانى والطفل الخامس فى عائلة مكونة من أحد عشر شخصا ، ولم تكن طفولتى طفولة مدللة . افسدها الاسراف فى الحنان .

ومنذ أن وعيت للدنيا ، وأنا غالبا ما يتردد فى أذنى مزاعم الاجانب بأننا شعب كسول متراخ لا يلقى بالا لما يدور حوله ، فى حين أن ذكرياتى المبكرة . تعى تماما تلك المواكب التى لاتنقطع من النساء والرجال الكادحين هنا وهناك فى القرية ، يطبخون أو يكنسون أو يبنون أكواخهم أو يزرعون ويحصدون .

وأذكر أنه قلما كانت تتاح لهم فرصة الراحة أو الاسترخاء قبل غروب الشمس فقد كان يومهم بطوله . يوم عمل دائبلايعرف الراحة ولا الكسل .

وأذكر منظر الامهات يحملن أطفالهن فوق ظهورهن .ويحاولن اغرائهم على النوم . على نغمات دق الارز .

ولن أنسى تلك الارجوحة التى كانت تتدلى من سقف « الشرفة » أمام كوخنا وتلك الاوقات السعيدة التى أمضاها والدى فيها فى ساعات الراحة .

والذى اذكره أيضا أن السعى الى مزيد من الرزق لم يتح لأمى سبيلا الى الراحة . فبجانب ما كانت تقوم به من الاعمال المنزلية ..كانت تدير محلا لبيع مشروب البلح . ومحلا لبيعالملح

والفواكه الطازجة والفول السودانى . وكانت تتخذ من الحائط الطينى الواطىء ، للشرفة ، الامامية فى كوخنا . مكانا لمباشرة أعمالها .

فاذا سارت الامور على مايرام ، كانت تضيف الى بضاعتها الوانا أخرى من الاطعمة المحفوظة .. وكان الوعاء الذى تحتفظ فيه بنقودها . يرن ويجلجل فرحا بالمزيد من تلك النقود .

وكان منزلنا يقع فى مدخل القرية .

وقد يحدث بين الحين والآخر أن تقترب احدى سيارات الركاب أو « اللوريات » من قريتنا اما لتزويد الرادياتير بالماء . أو ليطفىء سائقوها وركابها من ظمئهم ، وكان هذا الحادث بالنسبة لنا ـ كأطفال ـ من الحوادث الجسام . وقد يمتد الحديث بيننا عنه سنوات طوال ، سواء عن سائق السيارة أو عن محركها ،وكنا نتساءل فيما بيننا ، هل لذلك السائق هدف يسعى اليه ويقف عنده ؟ أو أنه يسير هكذا بلا هدف ؟ وكنا نتفحص ذلك المحرك الذى كنا نعتقد أن به مسا من قوة خارقة جبارة .

وكنا أيضا نتطلع الى ذلك السائق المتشامخ فى جلسته فى مقدمة السيارة . ونتصور قسيسا له مقامه العالى ، وله قدرة التحكم فى تلك القوة الجبارة ، وكنا نقدم الى الواحد منهم قدرا من مياه الآبار التى تنز طينا فى صفيحة الكيروسين بنفس الوقار الذى يقدم به الشماس الماء المقدس الى القسيس . وكنا ننظر الى ركاب السيارة الذين غطتهم الاتربة ، نظرة الاستخفاف لانحسدهم ولا نبغضهم . فقد كانوا يبدون أمامنا كالتائهين . سواء ركاب الدرجة الاولى أو ركاب الدرجة الثانية .

وما من واحد منا كان يسمح لنفسه أن يبتعد عن القرية ولو مسافة ياردات على ظهر هذه البدع الآلية . فقد كان عالمنا الذى نعيش فيه عالما آمنا . وكنا نعتقد بأن هؤلاء الذين تنهب بهم السيارات الارض نهبا . قد جاءوا الينا من عالم ينقصه الامن والسلامة وانهم قد يكونون اما مردة أو شياطين .

ويبدو انه قد ظهر فى طفولتى المبكرة . ما يدل على اننى كنت على شيء من الذكاء . فقد قررت عائلتى أن ألتحق بمدرسة الارسالية فى القرية وكنت انا الطفل الوحيد فى العائلة الذى ينال ذلك التقدير ، وربما كان السبب فى ذلك أيضا . تلك القصص التى كنت ارويها ونحن اطفال نجلس القرفصاء على الارض أمام كوخنا ، فقد كانت القصص طويلة ومعقدة وتثير الانتباه اما اخى الاكبر فقد كان أكثر منى براعة فى مساعدة أمى وخدمة عملائها اذ كان لايخطيء فى عد النقود وتسليم الباقى منها الى العملاء . وكان أحد أخوتى الصغار بارعا فى الدق على الطبول .

***

ولست أذكر ان موضوع التحاقى بمدرسة الارسالية كان موضع حديث أو مناقشة مع والدى . ولكن الذى أذكره أنه فى صباح ما ، أيقظنى والدى قائلا « اسمع ياكيسيمى » . ارتد الآن أحسن ملابسك . واغسل قدميك وتعال معى .

ويبدو اننى كنت فى العاشرة من عمرى فى ذلك الوقت ، فقد كنت أبلغ من الطول الحد الذى يجعلنى أصل الى مكان الاشياء الموضوعة فوق سور « الشرفة » من مكانى على الارض .

وارتدى والدى احسن ثيابه . بنطلونه الكاكى وقميصه المخطط باللونين الازرق والابيض وتوجهنا الى المدرسة التى تشرف عليها الارسالية الامريكية والتى تقع فى الجانب الآخر من القرية وعلى مسيرة ميلين من منزلنا .

***

وعندما لامست قدمى المدخل الرحب للمدرسة انتابتنى مشاعر من الدهشة والفخر وربما كان الشعور الثانى هو الذى طغى على ما عداه .

كنت اعرف معظم اطفال المدرسة ، وكان الموقف فى تلك المدارس يختلف عن مثيله فى المدارس الانجليزية ففى المدارس الانجليزية كانت الاسئلة التى توجه الى الاطفال الجدد اسئلة

تافهة جافة ؛ تدور حول عدد النخل الذى يملكه والد الطفل وهل سبق له ان توجه الى المدينة . اما فى المدارس الامريكية . فقد كانت الاسئلة تدور حول المدرسة التى تلقى فيها الطالب علومه قبل الآن ».

***

وترتسم الآن فى مخليتى ، المدرسة الامريكية التى قامت من مقعدها فى ركن الحجرة لترحب بنا عند وصولنا فى ابتسامة مشرقة . كان جمالها فائقا وبشرتها بيضاء موردة . وكان ذلك كله يغرينى على أن المسها . وعندما بدأت فى الحديث . بدا على صوتها طابع الجد والاهتمام . ووجد الطفل الذى دعته الى ترجمة الدرس الاول صعوبة فى تفهم ماكانت تتفوه به . وأنه ليدهشنى الآن تلك السرعة التى تمكنا بها جميعا من التحدث بنفس اللغة العجيبة التى كانت تتحدث بها . وبنفس النطق واللهجة ».

***

وهكذا دفع بى والدى الى طريق العلم .. ذلك الطريق الطويل الذى لانهاية له ، وكان كل حجر فيه علامة تشير الى المستقبل ، وكل خطوة كالحافز الذى يشحذ شهية العقل الى العلم والمعرفة .

وفى تلك المدرسة .. وفى الوقت الذى كنت أتلهف فيه الى معرفة معنى ماتتحدث به مدرستنا . بدا لى لأول مرة اننى قبضت بيدى على وميض من أمل وهو الامل الذى بدا لى مثيرا وجذابا وسر جاذبيته فى غرابته . وان معظمنا نسى فهمه . أو على الاقل. نسى معلمونا فهمه أيضا ».

***

بدأ معظم الاطفال يتعلمون بسرعة وآلينا على أنفسنا أن يكون الحديث بيننا بالانجليزية . فى كل مكان وعلى قدر المستطاع . وأخذنا نحفظ كلمات كتاب الترانيم معنى وهجاء التى كانت أول الجوائز التى تمنح لنا . وكنا ـ بعد انتهاء الدراسة ـ نجلس

الساعات الطوال يختبر كل منا زميله . سواء فى الكلمات أوالارقام أو فى القواعد .

***

وفى يوم ما . عرضت علينا مدرستنا « شوارتز » أنها ترغب فى أن يعيش واحد منا معها لمساعدتها فى شئون المنزل . بعدانتهاء الدراسة ، وقد فوجئت « شوارتز » بنا جميعا وقد تطوعنا لهذا العمل . وبعد أن استعادت هدوءها . وتمكنت من تهدئة صيحاتنا وامرتنا أن نخفض أيدينا التى لوحنا بها لنعلن تطوعنا . جاءت اللحظة المثيرة التى سكنت فيها أنفاسنا وهى تتطلع الى وجوهنا المتلهفة نحوها .

ولست أدرى ما هى الدوافع التى جعلتها تختارنى أنا لهذا العمل . وان كنت كثيرا مالاحظت أنها تبدى نحـوى مزيدا من العطف . وهو الشعور الذى يلاحظـه الاطفـال بسرعة أكثر من غيرهم .

***

قالت الآنسة شوارتز « اسمع ياكيسيمى » يمكنك أن تأتى. ولكن يجب أن تبلغ والديك أولا ، ثم عليك أن تتذكر بأن بقـاءك معى . رهين بسلوكك وتصرفاتك .

***

وكانت أمسية أول يوم فى منزل شوارتز أمسية مشهورة لم يغمض لى فيها جفن لشدة تأثرى عندما كنت أفكر فى هذا الحظ الذى هبط على من السماء . فقد أصبحت قريبا من مدى مسمع « انجليزية » شوارتز وأصبح لى حق الاطلاع على كتبها واتوجه معها الى العاصمة « ساجرسا » أو أبعد من ذلك بكثير .

كل هذه الصور البهيجة أنعشت عقلى الى ساعة متأخرة من الليل . ورحت بعد ذلك فى نوم هنىء . تغمرنى السعادة التى تفوق الوصف . ثم غطيت نفسى تفاديا من الناموس . ورحت ، هانئا فى دثارى . فى نوم عميق

لقد افادنى كثيرا وجودى مع « شوارتز » فالى جانب التحسن الذى طرا على تعلمى الانجليزية . فقد تعلمت الكثير عن العالم الخارجى . وبدات ادرك ان ثمة حواجز اعلى واشد صعوبة من حواجز اللغة واللون .

***

لم تكن شوارتز تعيش وحدها ، بل كانت تشاركها فى سكنها طبيبة اخرى امريكية هى الدكتورة « كوستيللو » التى كانت تشرف على عيادة طبية فى قرية اخرى . تستخدم فى الوصول اليها دراجة .. فى الذهاب والاياب ..

***

كانت تبدو عليها علائم الحزن . على خلاف ما كانت تبدو عليه النساء فى منازلنا من البهجة وراحة البال وقد لاحظت أنهما لاتتيحان لأنفسهما فرصة للراحة ولا تنعمان بالدعة التى تتمتع بها نساؤنا . وكانت أحاديثهما كلها مصطنعة لا أثر للحياة فيها .

ومن بين الفرص القليلة التى احسست فيها بانفعالهما العميق الصادق . وهى الانفعالات التى كانتا لاتستطيعان أو لاتحاولان اخفاءها هى أوقات الصلاة اليومية أو فى الاوقات التى كانتا تقومان بها لمسكن مساعد القومسيير المحلى الجديد .

***

وكانت الصلاة اجبارية بالنسبة لى ولم يكن ذلك لأن هناك من يحثنى على حضورها بانتظام . ولكن لأننى صممت على أن أمتص كل فرصة لزيادة معرفتى بالانجليزية حتى ولو كان ذلك من مجرد استماعى للصلاة .

***

ولقد أدركت من هذه اللحظات التى تطلعت فيها الى شوارتز وزميلتها كوستيللو . وهما تصبان روحيهما صبا فى حب الله ، فى حجرة الصلاة التى لاتنيرها الا مصابيح الكيروسين . ومن هذا

الاستغراق الذى سحرنى منهما . أدركت أن وراء هذا الاستغراق المثير . يكمن الجواب عن سؤال . وهو الغرض من مجيئهما الى هذه البلاد .

لقد تخيلت فى تلك اللحظات أنهما فى استغراقهما قد قطعا صلتهما بالحاضر ولم أدرك الا بعد وقت طويل ، ان الماضى وحده هو الذى كانتا تحاولان نسيانه عبثا .

***

وكثيرا ما كنت أتطلع اليهما . وأشاهد على محياهما علامات التألق تبدو فى قناعة ورضا ، وكانت الكلمات تتدفق من شفاههما فى سيل لاينقطع ، وغالبا ما كان يغيب عنى فى تلك اللحظات . اهتمامى بالاشتقاقات واللهجات وكان هذا الاغراق فى الورع يسلب لبى فكنت بدورى أروح فى غمرة من العبادة بلغتى وبنفس الفصاحة والبيان اللذين تؤديان بهما عبادتهما . وكان هذا يثير دهشتهما فيقولان « فليباركك الله ياكيسيمى » .

***

كانت اول زيارة يقوم بها مساعد القومسيير المحلى . فى الوقت الذى أصبحت فيه أحد أفراد العائلة . وقد بدات الزيارة الاولى بعدم الترحاب من جانب شوارتز وزميلتها كوستيللو .

كان ذلك فى المساء . وطرق آذاننا صوت سيارة تقف فى الطريق فجفلت السيدتان . اذ كان من النادر أن تقف سيارة أمام منزلهما ، وقفز من السيارة رجل طويل برونزى اللون ، يضع على راسه خوذة لوقايته من حرارة الشمس وبدأ يتفحص ساحة المسكن فى عظمة وكأنه وحده صاحب الحق فى الاشراف على القرية واتخذ طريقه بعد ذلك فى عزم وثبات نحو طريقه الى المسكن . وفى أقل من لمح البصر وفى سرعة عجيبة لم أشاهدها من قبل . اختفت السيدتان فى حجرة النوم ، وتركوا لى مهمة اعداد مقعد للضيف ليستريح ولأؤكد له . فى مزيج من الانجليزية ولغة « الهوسه » ان السيدتين موجودتان .

وبعد وقت غير قصير ، ظهرت شوارتز وكوستيللو ، ويالها من مفاجأة !! لقد كان اختفاؤهما فى حجرة النوم لـكى تستبدلا ملابسهما وتخرجا الى الضيف فى اكمـل زينة . وكانت تبدو عليهما قلة الخبرة فى مثل تلك المواقف .

***

وتمر فى ذهنى الآن صورة باهتة للحديث الذى دار فى تلك الليلة ، ولكن الذى أعيه وأذكره هو أن حديثهما كان أكثر بطئـا وأقل ذلاقة من صلواتهما . وكانت قدرتهما فى السيطرة على عواطفهما أشد منها وهما ساجدتان فى خشوع عند الصلاة !

وبعد لحظات ، وقف الزائر مستأذنا فى الخروج ، ورفض فى كثير من الادب ان يتناول شيئا من الشراب . وأسرع بالخروج فى وسط ضباب من التراب . استغرق دقيقة أو دقيقتين . ورأيت « شوارتز وكوستيللو » تراقبانه من خلال ستائر النافذة . وعلى الرغم من مظاهر الارتياح التى بدت عليهما عند رحيله . فقد بدا لى أن خديهما قد توردا قليلا على غير ما كنت أعهده فيهمـا .

وتطرق النوم الى عينى . بينما كان يترامى الى أذنى حديثهما المقتضب . وهما يتناولان الطعام ويرددان اسم السيد أندرسن !!

***

واصبح اندرسن . الاسكوتلاندى الوسيم . هو الزائرالمستديم فى الزيارات النادرة للسيدتين شوارتز وكوستيللو . وبدا على مر الايام وكأنه صاحب المنزل الى درجة انه بعد أسابيع من زيارته الاولى . اخذ يتجه بنفسه ــ دون سابق انذار ــ الى البوفيه ، وهو ذلك الجزء من أثاث المنزل .. الذى لايمكن تدنيسه بأى نوع من الكحول حتى ولو كان مجرد قنينة من عصير البلح ، ويتناول مايشاء من نبيذ البلح بعكس ما كان يحدث قبل ذلك . عنـدما كانت السيدتان تقترحان عليه تقديم مشروب . فى الوقت الذى كان يهم فيه بالخروج مستأذنا لانتهاء الزيارة ..

***

ومضت سنوات ، سألت بعدها أندرسن عما وجده من متعة في ذلك المسكن . وقد قص على تفاصيل معظم ما كان يدور في ذلك المسكن . ولا يخامرني شك في أن ما قصه على قد انتزعه من الخيال والذاكرة .. ولكن اذا كان من الممكن حمل ربع تلك الحكايات على محمل الصدق . فانها تستحق أن تروى لبيان كيف أن أفراد الارساليات شأنهم في ذلك شأن موظفي وزارة المستعمرات . يقبلون على المتعة وعلى اى لون من الوان اللهو يخفف عنهم ملل الحياة في تلك الوحدة القاسية التي يقاسون من حرارتها في المستعمرات .

وكما روى لي اندرسن . ان شوارتز وكوستيللو . توقفتا عن اخفاء شعور الراحة التي كانتا تحسان به في صحبته ونسيتا الفوارق بينهما وبينه ، بين حاضره المتجهم ومصيره الغامض الذي ينتظره بعد الموت وحاضرهما الهانيء الهادىء ومصيرهما السعيد الذي ينتظرهما هناك .

ووجد أخيرا - كما قال لي - متعة بريئة في استخلاص تفاصيل حياتهما الخاصة واكتشف أن كليهما تلقى رسالة لهداية عبدة الاصنام من الافريقيين فورا الى طريق الايمان . باغرائهم واصطناع تبادل الحب بينهم في الوقت الذي يكون فيه هؤلاء الافريقيون قد وصلوا الى مرحلة التعليم الثانوي على ان يقوم برسالة الهدى هذه . اثنان من عبدة الاصنام الامريكيين انفسهم !

***

ويقول أندرسن أيضا أنه كان يتطرق في حديثه معهما قائلا انه من دواعي الاسف الشديد أن يخلو مجلسهما من مشروب متمدين وان الحياة في المناطق الاستوائية لايمكن تقديرها على الوجه الصحيح . الا من خلال زجاجة من مشروب الجن . وان حديثه هذا وذاك لم يأت بطائل .

***

وتتكرر الزيارات . نجح بعدها اندرسن في حمل شوارتز وكوستيللو على تناول مشروب الجن ، وسط الوان النكات التي كان يرويها ومنها قصة خادم الكنيسة الذى داب على تفتيت الخبز البائت . على ان يستبقى منه جزءا للعشاء الربانى والجزء الآخر لفطوره .

وكما روى أندرسن أيضا . ان نكاته قد قوبلت في تلك الليلة بمزيد من البهجة . دلت عليه تلك الضحكات .

يالها من مفاجأة أخرى ! فالذى أذكره في تلك الليلة . انني كنت واقفا في ركن من الشرفة . وترامى الى سمعى تلك الكلمات التى وجهتها الى شوارتز .. جو .. ما .. ذا تعلمت ؟ . فجاء جواب كوستيللو وهى تتجشأ من وطأة الخمر .. « آمين » !!

***

ولقد أحزنني وأذهلني في الوقت نفسه مارواه لي أندرسن عن أحداث تلك الليلة وهى أحداث لا أسمح لنفسى أن أكشف عنها الستار كما رواها لي أندرسن .

***

وبعد ساعات . استغرقت السيدتان في سبات عميق كل على مقعده ، ووجد اندرسن نفسه . بلا وعى وهو يضع عليهما الاغطية . حماية لهما من سموم الرياح اللافحة .

- ٢ -

كان معنى « ساجرسا » ـ العاصمة ـ بالنسبة لي . عالما جديدا مثيرا . وكان عالمى هذا يقوم على مجرد تلك الروايات الملتهبة التى كان أصدقائى من سائقى اللورى يقصونها على . وعلى تلك الملاحظات التى كانت تتردد في حديث شوارتز وكوستيللو .

وكان معناها بالنسبة لوالدى هو أن أعيش بين قوم ينظر اليهم والدى بعين من الشك والريبة .

وكثيرا ما كان والداى يتحدثان عن ذلك الميناء الساحلى « ساجرسا » وكيف اختلط سكانه بالسكان البيض الى درجة أصبح معها سكان المدينة من الوطنيين أجانب عنها . فى لغتهم وعاداتهم على الرغم من لونهم الاسود .

وكانت هناك أيضا لحظات مظلمة . سلبنا فيها أيضا سكان ذلك الميناء . بعض أرضنا من الوطن وانضموا الى الرجل الابيض فى مناسبات شتى . شن فيها المعارك ضدنا .

ويذكر الكبار من سكان قريتنا . تلك الاوقات التى تمادى فيها الرجل الابيض مع اعوانه من سكان « ساجرسا » فى الاستبداد بنا .

وكانت هناك أيضا ثورة كبيرة قام بها شعبنا وسقط فيها الكثير من الضحايا ولم يسفر عنها تحسن فى العلاقات بيننا وبين الرجل الابيض و « الاجانب السود » من سكان ساجرسا الذين انضموا الى الرجل الابيض فى محاولة الاضرار بنا .

***

هذه هى بعض نواحى « ساجرسا » وكيف كنا ننظر اليها نحن سكان قرية « لوكو » .

***

على أن « ساجرسا » بالنسبة لنلقى تعليمى الثانوى بها . كان معناها اتاحة الفرصة لى لاكتشاف العالم والخروج من ذلك النطاق الضيق ، نطاق القرية .

وهذا هو نفس ما كان يؤمن به والدى . على الرغم من أميته . فقد كان من رأيه أن أتلقى تعليما حرا وليس بجامد . الغرض منه الكشف عن المجهول ومعرفة الكثير .

***

واخيرا . توجهت الى ساجرسا . وفى مخيلتى الايام الاخيرة التى مضيتها فى قريتى « لوكو » بصورتها الواضحة الوضاءة . والمدرسة التى تعلمت فيها الكثير وأشقائى وشقيقاتى وذلك البساط الاخضر من الاشجار الذى يحيط بكوخنا هناك .

وتذكرت الى جانب ذلك « القرود » التى كانت غالبا أهدافا لقطع الحجارة التى كنا نلقى بها عليها وهى تقفز فوق أشجار المانجو الصغيرة . وقد بدا لى الآن أنها تجمعت وضمت رءوسها بعضها الى بعض وأخذت تتحدث فيما بينها . وكأنه قد ترامى الى سمعها أيضا ماواتانى من حظ سعيد .

ولن أنسى أيضا موقفى حينذاك . فقد أومأت اليها بدورى مودعا محييا . ويبدو ان أكبرهم سنا قد رد على التحية بمثلها، كأنما اراد أن يؤكد لى بدوره أنهم لايضمرون لى السوء .لاعتزامى تركهم وهجرهم .

***

أما أمى .. فقد بدت أمام عينى فى ساعة الفراق وكأن كل مافيها اصبح جديدا . اذ كانت لى بمثابة بر السلامة والسلام ، وكان فى اعتقادى ان كل ما تمنحه لى . هو حق من حقوقى لابد لى من الاستيلاء عليه وانه من واجبها أن تمنحه لى وألا تحرمنى منه .

وعندما حانت ساعة الوداع . أدركت مدى طيبة قلبها ومدى حنانها ورعايتها لأطفالها .

كانت مثال الام الطيبة العادلة . وكانت لاتزال صغيرة السن، نحيلة طويلة القامة ولها بشرة ناعمة كالابنوس وكان جمالها بلونها، تبدو كالفولاذ الازرق فى ضوء القمر .. وكان صدرها لايزال مشدودا . وقدماها ويداها تشهدان على مابذلته من اجل اولادها

كانت قدماها عريضتين من شدة ماكانت تحمله من أثقال وكانت يداها الصلبتان كثيرة الشقوق من فرط مابذلت من أجل أولادها، ولكنها مع ذلك كانت أطيب الامهات وأجملهن أجمعين .

***

كان الرأى أن تقوم الارسالية بتحمل مسئولية جميع نفقات تعليمى فى « ساجرسا » ـ بعد أن أصبحت فى نظرها مصدر دعاية لها ـ وكان الاتفاق أن أشترك فى الترانيم بعد انتهاء الدراسة ، وعلى أن يتحمل والدى كسائى ومصروفى اليومى .

***

كان يوما مطيرا جدا . وفى بداية فصل الامطار عندما صعدت أنا ووالدى وشوارتز التى كانت قد عادت من أجازتها فى الولايات المتحدة ، الى سيارة اللورى لتنقلنا جميعا الى ساجرسا ، واجتمع أهلى وأصدقائى لتوديعى ، وصحبنى والدى فى السيارة الى ساجرسا . وقفز المحرك ودبت فيه الحياة . وكانت شوارتز تجلس الى جوار السائق . بالدرجة الاولى فى السيارة .

وتحركت السيارة وابتلع دخانها الكثيف المودعين الذين يمثلون الوطن والحب والسلامة .

ولست أذكر الكثير عن تلك الرحلة . ولكن الذى أذكره اننى شاهدت للمرة الاولى فى حياتى قطارا للسكك الحديدية . وكانت تلك القاطرة وهى تدخن وتنفخ بمنخارها ومنظر ذلك التمساح الصغير من العربات المائلة التى تنطلق وراءها فى الطريق . كان ذلك كله رمزا لعجائب أخرى فى طى الغيب الذى قدر لى أن أسلك طريقه .

وتوقف الدفع والجذب فجأة . وخفت حدة المعركة التى كانت تدور بين أجزاء السيارة . وبدأ الموتور ينفث دخانه الذى تحول معه طريقنا من اللون الاحمر الى اللون الاسود . وأخذت السيارة فى الصعود مرة والهبوط مرة أخرى ثم بدأ الموتور يسعل ويئن . وتوقفت بنا السيارة اخيرا . ثم عادت الى السير مرة اخرى وبعد قليل بدت لنا معالم « ساجرسا » وبعد دقائق كنا امام باب الارسالية .

***

تنـاول الحـديث الذى دار بين والـدى وبين مراقب عام الارسالية . الترتيبات الخاصة بدخولى المدرسة وهى الترتيبات التى أعرب والدى عن رضائه عنها وامتزجت عبارة الشكر التى ابداها والدى بالهدايا التى أحضرها معه من القـرية وهى ثلاث دجاجات حية وأنواع مختلفة من الفاكهة .

***

وخرجت انا ووالدى نلقى نظرة على معالم المدينة وربما كان الطابع الذى اذكره الآن هو ذلك العدد الكبير من الناس فى سـوق المدينة الذى يتحدث معظمهم بلغة لا هى بالانجليزية ولا هى لغـة « الهوسا » لغة بلادى .

وفى « ساجرسا » رأيت البحـر لأول مرة ، وكنت شأن كل تلميذ فى اى مكان . ارى فى الناس وما يقـومون به من اعمـال يدويه ما يثير الدهشـة والاهتمام اكثر مما تثيره الطبيعـة من أعمال . ولكن نظرتى الاولى الى البحر الذى لا نهاية له . جعلتنى ادرك فورا أن الطبيعة وسحرها وأعمالها الخارقة جديرة بالحب والتقدير والاستمتاع .

***

وخطر لى بعد سـفر والدى . ان أسـتمتع وحدى بحـرية المرور فى المدينة . وكان أول ماشاهدته ذلك البناء الضخم الذى ادركت من وجود الجنود فى زيهم الرسمى الذى قرات عن اناقته فى الكتب . أنه قصر الحاكم .

ودفعنى شىء ما الى أن اقترب من أحد الجنود واتحدث اليه بلغة بلادى « الهوسا » . ولدهشتى أجابنى الجندى بنفس اللغة . دون أن يحرك ساكنا من جسمه . وعلمت منـه أن الـكثير ممن يتكلمون لغة « الهوسا » يعملون فى الجيش . وادركت بعد حديثى معه . انه الى جانب مشاعر الاثارة التى توقظها عثور الانسان على واحد من اهله فى بلد غريب . مشاعر أخرى أشد وأمتن . هى

مشاعر الحنين الى الوطن . وهى مشاعر تبدو خامدة . ولكنها تنتظر الفرصة السانحة لتصحو فى قلب صاحبها وتؤكدوجودها.

***

ومضيت أشاهد معالم المدينة . وقادتنى قدماى الى تل صغير شاهدت فيه سلسلة المساكن الحقيرة التى يعيش فيها جنود الجيش والبوليس . وكان منظرها مؤثرا يفوق الوصف . فهى مجرد مساحات من الاسقف متآكلة متعفنة . صفت بين أشجار الفاكهة فى العراء وتحت السماء المتوهجة .

وشاهدت فى « ساجرسا » سفن المحيط لأول مرة . وعندما بارحت الميناء . قلت لنفسى لابد لى من ركوب تلك السفن فى يوم ما لأحصل من تلك الارض البعيدة . أيا كان موقعها ، وأيا كان أهلها على المعرفة والمهارة والقوة .

***

وفوجئت عند عودتى من رحلتى الى مبنى الارسالية . برؤية والدى من جديد . نتيجة لاصطدام اللورى بشجرة وانفجار احدى العجلات .

وكانت هذه أول مرة فى تاريخ العلاقات بينى وبين والدى . التى يرى فيها والدى – أن تنازلى عن أى من وسائل راحتى – شىء يستحق التعليق من جانبه وقد لمحت وقتها كيف أن صلة جديدة بدأت تنمو بيننا . اذ أنه حتى ذلك الحين كان الاتصال بينى وبينه خفيفا . وقد تمر أيام لانتبادل فيها أية كلمة . فيما عدا ما كان يصدره لى من أوامر أثناء العمل . وكانت امى هى التى دربتنى على أن تكون دليلى فى تصرفاتى وتوجيهاتى .

***

وأخذت أستعد للامتحان التمهيدى لدخولى المدرسة الثانوية. وكانت الشهور التى أمضيتها بين وصولى الى « ساجرسا » وموعد الامتحان . شهور عمل دائب لاينقطع .. انتهت بنجاحى

فى الامتحان وأبلغت والدى فورا بالنتيجة . وسرعان مارد على بخطاب كتبه أحد مدرسى القدامى فى مدرسة القرية ، وقدتضمن خطاب والدى الذى أعتز به دائما . لا لأنه أول خطاب يصلنى منه . ولكن لأنه ظل على الدوام حافزا لى نحو تحقيق اطماعى وبلوغ أحلامى . تضمن ذلك الخطاب أجمل التهانى ومضى يذكرنى بأننى بدأت الآن فى صعود شجرة البلح العالية الوعرة المسالك وأن الكثيرين يراقبون خطواتى واننى اذا نجحت فى تسلق الشجرة العالية . فسأجد هناك فاكهة ناضجة حلوة المذاق . وحذرنى فى خطابه . بأن فشلى فى بلوغ قمة الشجرة ، سيجلب على لعنة الاحياء والاموات الذين يراقبون صعودى وصمودى .

وقال فى خطابه . انه اذا كانت غايتى من بلوغ قمة الشجرة، هو للاستمتاع بثمارها . فان نهايتى هى السقوط والموت ،ولكننى اذا بلغت القمة ثم عدت بعد ذلك الى أهلى لأتذوق معهم ثمار نجاحى . فانهم بدورهم سينشدون نغم نجاحى .

والحق . أن رسالة والدى أبعدت عنى مشاعر التعاسة والوحدة التى كانت تنتابنى خلال الفترات التى كنت أخلو فيها الى نفسى .

صحيح اننى كنت أعمل جاهدا لنجاحى . ولكن الذى كان ينقصنى هو اننى لم أكن واثقا من الاتجاه الذى يمضى فيه طريقى والهدف الذى كنت أسعى اليه . ثم جاءت رسالة والدى فوضح لى معها الهدف والفرض .

- ٣ -

يضم مدرستى الجديدة ، مبنى خاص ، كان يوما ما سجنا من السجون ، واستخدم مرة مأوى للمتسولين .

ولو كنا ــ نحن الطلبة ــ على علم بذلك التاريخ ، لأصبحت مدرستنا مادة دسمة لتبادل النكات فيما بيننا ، ولكن الذى حدث هو اننا كنا على جهل بذلك التاريخ ، وان ذلك المبنى القبيح

الشـــكل بجدرانه السميكة ، أصبح عنـــدنا موضع التقديس والاحترام .

***

كان الطابق الأرضي يرتفع قليلا عن مستوى الساحة المحيطـة بالمنزل . وكان الطابق الذى يليه مكونا من حجرة كبيرة ، يمـكن بدورها أن تنقسم الى حجرات للدراسة .

أما عنابر النوم ، فتقع فى الطابق الأعلى وفى ذلك الطابق بالذات كان عدد الفئران ثلاثة أمثال عدد الطلبة ، ولـكن يبدو أن الوفاق كان سائدا بين الجانبين ، وانهما حققا فيما بينهما مبدأ التعايش السلمى .

وكان المدرسون يشاركوننا عنابر النوم ، أما ناظر المدرســة فـكان يقيم فى مسكن فوق المبنى الرئيسى للمدرسة ، حيث توجد الكنبة والمصطبة .

وكانت ضربات المسطرة فوق أطراف الاصابع .. هى العقوبة العاجلة لأى بادرة تهاون تبدو من الطالب داخل حجرة الدراسة .

ولم تكن اعيننا تقع على ناظر المدرسة الا لـماما ، فيما عدا الفترات التى كنا نراه فيها فى الكنيسة .

والحق ، ان رؤياه لم تكن تشجع على أن نسعى اليهـا مرة أخرى ، فقد كان طويلا نحيلا له أنف يشبه منقار النسر .. وكان يعقب العقوبة التى يوقعها على الطالب ، أن يضطر الواحد منا الى اغراق نفسه فى الماء البارد ثلاثة أيام ، فى محاولة اطفاء اللظى الذى خلفته تلك العقوبة على أجسامنا .

***

وأصبحت ـ لفترة طويلة ـ ضحية تعدد اللغات واللهجات ؟ فأنا الطالب الوحيد الذى يتكلم لغة « الهوسا » وأجهل ما عـداها من اللغات فيما عدا الانجليزية ، وكان الحديث بين زملائى ، يدور ـ عن عمد ـ بلغة ساجرسا ، وليس باللغـة الانجليزية التى كانت

لغة التخاطب . وقد استطعت أن اتغلب على هذه المشكلة . ففى نهاية العام ، كنت قد تمكنت من اتقان لغة سكان «ساجرسا» .

وفى اعتقادى ، أن اتقانى لغة « ساجرسا » لم يكن وحـــده سببا فى اكتساب احترام زملائى بل لاشك أن الذى أكسبنى ذلك الاحترام ، هو النجـــاح الذى لازمنى فى دراستى ، الى جانب الأموال التى كانت تأتينى من والدى ، لأبدو معها رشيقا فى ثيابى .

***

كان الاهتمام ضئيلا بالنواحى الرياضية فى المدرسة ، ولقـد صادف هذا هوى فى نفسى ، لعدم اتقانى الكثير من تلك الالعاب .

وكنا ـ بين الحين والآخر ـ نمارس رياضة السير حول المدينة مشيا على الأقدام يشترك فى ذلك الطلبة من أصحاب العاهـــات الجسمانية .

وربما كان الضرر الوحيد النـــاشىء عن تلك الرياضة ، هو تحريك الشهية الى الطعام ، وهى الشهية التى كانت تجـد عقب وجبات الطعام المدرسية ـ شأن كل وجبات طعام فى كل مدرسة ـ ما يخيب من آمالها ، ويهد من عزيمتها ، ويوهن من قوتها !.

***

لقد لاح لى ، على ضوء الخلافات القبلية فى افريقيا ، مـدى الأهمية العظمى للجهود الموحدة التى تبذل نحو هدف مشترك الى جانب التعليم المشترك والمشاركة فى الحياة بين أفـراد القبـائل المختلفة ، وتأثير ذلك كله فى كسر حدة النعرات القبلية وخلافاتها .

وأولى الثمار التى جنيتها من هذه التجربة زوال نفور زملائى منى ، وان فتح لى أباؤهم صدورهم لى .

***

على أن الامر كان على نقيض ذلك بالنسبة لفتيات ساجرسا .. فقد بدت منهن شدة وقسوة فى التعصب لساجرسا ولغتهـا وأفرادها ..

***

وتجيء العطلة الدراسية ، وأسافر الى قريتي حيث يقرر والدى انضمامى الى جمعية « دابو » السرية ، وهى الجمعية التى كانت الارساليات تحظر علينا الانضمام اليها .

ويتم فى تلك الجمعية ، انتقالى من مرحلة الطفولة الى مرحلة الشباب ، وبها أيضا تمر شقيقاتى بنفس المرحلة ، مرحلة الانتقال من الطفولة الى الشباب .

وفى هذه الجمعية يتم أيضا تدريب صبيان القبيلة والأزواج والآباء على أن يكونوا مقاتلين مهرة ، هذا الى جانب التدريبات النظامية التى يتلقاها الكثيرون والتى تتم على مستوى عال ، والتى تؤهل أصحابها للقيام بدور له قيمته وأهميته لحماية ميراث القبيلة من الثقافة والقوة ..

وتشمل التعاليم فى جمعيتنا السرية التدريب على وسائل الدفاع عن النفس ، بل وكيف نمارس الحب ونقرع الطبول وكيف نغنى ونرقص .

وهى تعلمنا أيضا ، تاريخ القبيلة وفنونها الشعبية ، والأهم من ذلك كله ، هو قسم الولاء الأبدى نحو جميع اخوتنا واخواتنا من أفراد القبيلة ونحو أجدادنا وآلهتنا .

***

وتمضى السنوات الأربع للدراسة الثانوية ، ويقترب موعد الامتحان النهائى ، حيث كانت ساعات المذاكرة لا تقل عن عشر ساعات ، وكنت أحرص على أن أختلط بالطلبة الذين أعرف أن مدارسهم تضم أحسن المدرسين .

ولم أكن وحدى صاحب الجهد المضنى فى الاستعداد للامتحان النهائى ، بل كان ذلك دأب جميع زملائى .

ويجب أن يتصور الانسان معنى الحصول على « الشهادة » فى مدارس أفريقيا ، فقد كان الحصول عليها يعنى ضمان الحصول على وظيفة مجزية .. وأن يصبح حاملها عضوا فى الفئة المختارة التى يطلق عليها اسم « الأقلية المتنورة » والمتفوقين الذين كانوا

بدورهم موضع فخر وبهجة الأقارب والأصدقاء ـ وكانوا ـ على النقيض من ذلك .. وكلما زاد عددهم صاروا مصدر خوف ويأس بالنسبة للمستعمرين .

***

كنا جميعا ندرك هذا ، وكان الاستعداد لدخول جامعة كابردج يستهلك كل أوقاتنا ، ولم نلق بالا الى نصائح الآباء بأن نترفق بانفسنا .. ومضى الكثيرون منا يحرقون الليالى بطولها فى المطالعة وكانت مصابيح الغاز بالنسبة لنا فى تلك الأيام ، أثمن مانملك وأغلى ما نحرص عليه .

***

وفى خلال السنة النهائية ، بدأ اهتمامى بالسياسة وهى المجال الذى أصبح بعد ذلك المؤثر الأصلى فى تشكيل مجرى حياتى ..

وفى ذلك العام ، أعدت جمعية المناظرة فى المدرسة ، وهى الجمعية التى كنت أمينها العام ، موضوع الحكومة البلدية للمناقشة . وكان موضوع المناظرة هو أن تلك الحكومة ، ديموقراطية شكلا وليست ديموقراطية فى الحقيقة .

وكان طرفا المناظرة على الصورة التالية : الطرف الاول يمثله أحد أعضاء البلدية ممن يقرب عمره من الأربعين يساعده الرائد الأول من بين طلبة المدرسة ، ويتكون الطرف الثانى من عمدة المدينة الذى كان قد تجاوز الثامنة والسبعين من عمره يعاونه أكبر طالب فى المدرسة سنا .

ولهذا الطالب قصة طريفة ، فقد كان فى السابعة والعشرين من عمره ، وكانت شهادة ميلاده من الوثائق السرية التى أخفيت تماما عن ناظر المدرسة ومدرسيها وموظفيها ، وكنا نسمع ان واحدا من أولاده يزوره خلسة ليقدم له ألوانا من الأطعمة التى تصنعها له زوجته ..

***

كانت المناظرة حافلة وطريفة ، والذى أذكره أن الاوامر صدرت الينا بأن نلتزم جانب الوقار والاحترام بالنسبة لأعضاء المناظرة من كبار السن ، والواقع انه لم يكن ثمة ضرورة لاصدار مثل تلك الأوامر ، لأن احترام كبار السن وتوقيرهم عادة تأصلت فينا نحن الافريقيين ، وعلى ذلك فقد أخصبت حملات السخرية والدعابة على عضو اللجنة من الطلبة ، صاحب السبعة والعشرين ربيعا من عمره الذى قوبل بصيحات « أيها الجد » ! .. « يا متو شالح جد سيدنا نوح ! » . وقد حاول البعض منا تقديم عصا اليه ليتكأ عليها .. أو نظارة ليضعها فوق عينيه ، احتراما لسنه .. وضاعت على المسكين أية فرصة ليجرب فيها زلافة لسانه وبلاغته وسط موجات السخرية التى أغرقناه فيها .

وانصافا له ، يجب أن أقرر هنا أنه أصبح موضع الفخر والاعجاب ، وهو يمشى فى صف الفائزين بالشهادة فى نهاية العام الدراسى ..

***

على أن أهمية المناظرة لا تكمن فى طرافة ما حدث فيها ، ولكنها تكمن فى تلك الحقائق المرة التى كشفت عنها .. وهى الى متى يظل المواطن الافريقى غير صالح للمشاركة فى الشئون العامة لمدينته أو قريته ..

وعلى الرغم من انهماكى فى الدراسة ، فقد خرجت من تلك المناظرة بأفكار خاطفة تركزت فى هاتين الحقيقتين ، اولاهما أن الدساتير ليست مجرد كلام يكتب على الورق ، ولكنها أمانة فى التطبيق .. كما أن الدستور المكتوب على الورق يختلف تمام الاختلاف عنه عند تطبيقه وتنفيذه لأن الوضع الاجتماعى لشعب ما يفوق فى أهميته القوانين والشرائع والدساتير عند تكوين الشكل الفعلى للحكومة الصالحة .

والحقيقة الثانية ، هى انه قد أصبح من الصعب جدا تحميل كبار السن من الرجال مسئولية تغيير النظام السياسى القائم ، وانه فى حالة تطوير أمة ما .. يجب أن ينتقل النفوذ السياسى من الجيل

القديم البالى ، الى الجيل الجديد الذى عليه أن تتحمل سواعده القوية وتطلعاته الى المستقبل ، مسئولية أحداث ذلك التغيير .

وقـــد بدا لى ذلك كله كالسراب فى تلك الايام ، على أن ذلك السراب نفسه لم يعدم أن يترك أثرا فى تفكيرنا عند ما كان الحديث بيننا نحن الطلبـة يتطرق الى بحث اســـباب الأمراض والعلل السياسية التى كنا نعانى منها الـكثير .

***

وسالت دماء « ساجرسا » و « لوكو » فوق أرض المـدرسة وقد نشأ ذلك نتيجة للمعركة التى نشبت بينى وبين صامويل ابن ناظر المدرسة .. وهى المعركة التى حدثت قبيل الامتحان .. وفى الوقت الذى كنا فيه فى حاجة الى كل دقيقة ، والى كل خلجة من خلجات الاعصاب التى كانت قد بلغت مداها من التوتر والاجهاد .

وكان صامويل هو الذى بدا بالعدوان فقدأثارنى بقوله انه على أهل الشمال – يقصدنى انا – ان يعـودوا الى بلادهم ، ليلتمسوا هناك ما يناسبهم من وظائف . فسألته غاضبا : ولمـاذا ؟..

فكان جوابه أن تمثل بحكمة تقول : « انه على الذين لايعرفون الى أين المصير ، أن يدركوا على الأقل من أين جاءوا » ..

وكان ناظر المدرسة – وهو والد صامويل فى الوقت نفسه – عادلا فى توقيع العقوبة فلم ينج ابنه من الأربعة وعشرين جلدة التى نالها كل منا فى حجرته ، والتى أعقبها أمره الينا بأن نتصافح .. ثم نسير معا الى الشاطىء ، يراقبنا أحد الطلبة .

***

والواقع ان هذا الذى حدث بينى وبين صامويل قد أسفر عن نتائج لم تكن فى الحسبان ، فقد ادرك كل منا حقيقة الخلافات التى تفصلنا .. وأدرك كل منا أيضا انهذه الخلافات تعنى ضياعنا فى موجة من البؤس والاذلال .

وتمر الأيام ، لا أقابل فيها صامويل الا لمـاما ، وتجمعنا معـا حجرة الدراسة ، ولم يكن بها سوانا ، ولن اقص ما دار بيننا من

حديث فى تلك الحجرة .. فقـــد كان أكثر من محاولة تصفيـــة الخلافات ، وأهم من ذلك بكثـــير فقد تعاهدنا على تحقيق مثلنـــا الأعلى .. وهو أن نتضافر لنجعل من أمتنا .. أمة قادرة على بلوغ القـــوة والحرية ، عن طريق الوحدة ، وقد ظل ولاؤنا لهـــذا المثل الأعلى باقيا الى الأبد .

***

وجاء الامتحان ، وأعلنت النتائج ، ولم تذهب مجهوداتنا عبثا ؟ وكان «متوشالح» وهو اللقب الذى كنـــا نطلقه على أكبر الطلبة سنا . من أوائل المتفوقين ، واتيحت له ولى ولصديقى صامويل فرصة الحصول على المنحـــة الدراسيـــة التى تؤهلنا للالتحاق بالجامعة ..

وأغرقت نفسى انا وصامويل فى موجة من الفرح فتوجهنا الى تل يعلو المدرســـة ، وأخذنا نغنى ونغنى ، من أعماق قلوبنا وملء رئتينا.. وبلغ من فرط سرورنا واغراقنا فىالفناء أن بعض الطلبة الذين كانوا يراقبوننا ، حاولوا استدعاء طبيب المدرسة للكشف على عقولنا !

- ٤ -

وتمضى أربعة أشهر ، فنهيأ بعدها للسفر الى بريطانيا تمهيدا لدخولنا الجامعة ، وقد أبدى صامويل رغبته فى دراسة الطب ، وقررت بدورى أن أدرس الأدب .

ولم يحضر والدى لتوديعى عند سفرى ، بل حضر أحـــد اخوتى الذى سلمنى قطعة من المـــاس قال ان والدى يرغب فى أن أحتفظ بها فى رحلتى ، وعند عودتى الى وطنى ، لأذكر معها دائما اننى أحمل معى كنز محبة قومى وايمانهم بى ..

وأمامى الآن وأنا أكتب هـــذا الـــكتاب جزء من ذلك الحجر الـــكريم .. الذى أعتبره أعز ما أملك .. والذى كلما نظرت اليه تراءت لى من خـــلاله .. المجد اللامع لقوة افريقيا وثروتها التى لا تنضب وطاقتها القوية .

والحق ، لقد اصبحت تلك الماسة بالنسبة لى ٫ نجم حرية افريقيا الثاقب ونورا ولهبا يوقظان المارد الافريقى من غفلته .

***

كان يوما مطيرا ذلك اليوم الذى ركبت فيه الزورق فى الطريق الى السفينة التى ستنقلنا الى الخارج .

ولست انسى ، والزورق يقطع بنا النهر .. تلك الصبية الصغيرة ، التى كانت فى سنى ، والتى انتهزت سقوط الامطار .. وأخذت تستحم — كما هى عاداتنا — فى العراء ، بعيدا عن عيون الناس تغمرها السعادة التى كان يعلن عنها ضحكاتها الصادقة ، من قلب برىء هانىء تملأ بها جنبات ساحات منزلها .

وفى لحظة خاطفة لوحت اليها بيدى مودعا ، فردت على ضاحكة لاهية ، ينفرج فمها عن ثنايا فى ضوء النهار اللامع ..

ان الافريقى يهتم الاهتمام الشديد بالرمزية فى حياته ، ولقد جعلتنى هذه الصبية أؤمن بأن فى افريقيا ما يستحق أن يعود الانسان من أجله ..

صحيح انها غابت عن عينى الى الأبد ، ولكنى لن أنسى أبدا تلك السعادة التى كانت تغمرها ، وهى السعادة التى كان مبعثها براءة الصبا وطهارة الشباب .

ولن يحتاج الأمر الى أن أغرق نفسى فى التفاؤل ، وأزعم أن فتاتنا قد زفت الى أحسن ما تتمناه امرأة فى الوجود ، دون أن تضحى أو يضحى غيرها فى سبيل ذلك .

ان الكثيرين يرغبون فى امتلاك السعادة ، كاملة غير منقوصة فى غير مقابل ، سواء من أجسامهم أو من أرواحهم ، وان القدرة على امتلاك السعادة بهذه الطريقة ، تعنى المزيد من الخسارة .

وغاية ما أؤمن به ، هو اننا سنفقد كل شىء اذا دفعنا أرواحنا ثمنا للاستمتاع بالحياة ..

***

واقلعت بنا السفينة ، انا وصامويل ، ولما كنا نحن الوحيدين من « سونجهاى » اللذين يتمتعان بالمنحة الدراسية ، فقد هيأ لنا ذلك فرصة السفر بالدرجة الأولى ، وهى ميزة أحيت فينا أملين أولهما : الاختلاط بالانجليز والتحدث اليهم ، ارواء لشهوة المعرفة التى كانت تتجدد عندنا كل يوم .. وثانى الأملين أن تتاح لنا فرصة الاستمتاع بالطعام الجيد بعد الذى قاسيناه من وجبات الطعام المدرسية ..

***

ان الأمل الذى كان يداعبنا ونحن نتخيل وجبات الطعام التى ستقدم الينا على مائدة السفينة ، هذا الأمل ولد ميتا ، وقد شهدنا مصرعه عندما قدمت الينا أصناف الطعام التى لا يميزها الا التفنن فى اختيار أسمائها ، دون التفنن فى اختيار انواعها وأصنافها ..

***

أما الأمل الثانى ، فكانت صدمتنا فيه أشد قسوة من صدمتنا فى وجبات الطعام ..

لقد كانت غايتنا ، من الاتصال بالانجليز والاختلاط بهم ، أن تتاح لنا فرصة دراسة عاداتهم وأخلاقهم .

وكنا نتطلع الى التخلص من ذلك الجو المريض الذى جعل الاتصال بين السود والبيض على الساحل الغربى لافريقيا أمرا مستحيلا ..

صحيح اننى وصامويل كنا حديثى العهد بالمدرسة .. ولكن لا جدال فى أننا كنا فى نفس عمر بعض ضباط وزارة المستعمرات البريطانية الذين كانوا يشاركوننا الطعام على ظهر السفينة ..

ويبدو لى ان الكثير منهم كان يسعده زوال تلك الحواجز العنصرية ، وكان يسعده دعوتنا الاى الانضمام الى مائدتهم .. ولكن يبدو ان معنى ذلك كان يعنى الازدراء بالسلوك الاجتماعى الذى دربوا عليه ، كما أنه كان يعنى تحدى القوانين غير المكتوبة

التى وضعتها شركات الملاحة والتى تقضى بمنع الاوربيين والافريقيين من الاتصال الوثيق أو التمادى فيه على ظهر السفن.

***

ولن أنسى أبدا ، ذلك الجهد المضنى الذى كان يبذله كبير السقاة وهو يقوم بترتيب المقاعد فى « صالة » الطعام ، ليحول دون جلوس البيض والسود على مائدة واحدة ، كما اننى لن أنسى مظاهر الامتعاض التى أبداها خدم الباخرة عندما توجهت أنا وصامويل الى حوض السباحة ، فى الوقت الذى كان فيه الحوض خاليا من المستحمين ..

***

ويبدو أيضا ، كأن ملاحى السفينة ، كانت لديهم تعليمات بأن يوحوا الينا أن وجودنا فى الدرجة الأولى لم يكن حقا لنا حصلنا عليه .. ولكن مجرد تفضل من به علينا المسئولون ، ولا شىء غير ذلك ، وانه يجوز أن يقذف بنا ، وفى أى وقت الى مقدمة السفينة، حيث مقامنا اللائق بنا هناك ..

***

والواقع أنه لم يكن من حقنا أن نتوقع القضاء على هذا الذى بدا من سقاة السفينة وضباطها .. ولكن الذى حدث هو انه فى اليوم التالى لرحلتنا .. وتفاديا من محاولة اذلالنا او عزلنا ، قررنا أن نتجنب الظهور فى أى اجتماع على ظهر السفينة ، فيما عدا قاعة الطعام ، وقد وجدنا ثلاثة من الطلبة الافريقيين على ظهر سفينتنا ، ذاقوا أيضا مرارة ما ذقناه وعانوا سوء ما عانيناه .

ومع ذلك ، فقد كنا فى ميعة الصبا ، وفى عقولنا مشاريع جديدة وعديدة ، وكانت الحماسة تملأ قلوبنا نحو مستقبل باسم .. وكان طموحنا قويا ، وكنا ندرك جميعا أن التماس السعادة مع الاجانب أمر لا يمكن تحقيقه ، وان سعادتنا تكمن فى صحبة أبناء

قارتنا ، وعلى ذلك مضينا في استمتاعنا بالرحلة ، بكل ما فيها من جديد ومن مفامرات ..

وعند ما ألقت السفينة مراسيها فى « لاس بالماس » وهى آخر ميناء قبل وصولنا الى « ليفربول » ..

وكنا أول الركاب الذين يغادرون السفينـــة للطواف فى لاس بالمـــاس ، كما كنا آخر من يصل اليها بعد انتهـــاء زيارتنا لذلك الميـنـاء ..

كنا خمسة من الطلبة الافريقيين ، وقد أضحكنا كثيرا سائق «التاكسى» الذى كان أول ما فاجأنا به مجموعة من الصور الخليعة .. حاول اغرائنا على زيارة صاحباتها ، ويبـــدو أن ذلك السائق قد أذهله وأدهشه أن يرفض خمسة من الشبان الأصحاء الأقوياء دعوته ، ويطلبون منه أن يذهب بهم الى سوق المدينة ، وأحيائهـــا الشعبية حيث يحاول الاهـــالى هناك سلب أموال السائحين بلا خجل ..

وزرنا أيضا كاتدرائية الميناء ، وقد أدهشنا جدا مبلغ فخامة الكاتدرائية وعظمة مبانيها وزخارفها ومبلغ الفقر الذى يعيش فيه الأهالى فى شوارع المدينة ..

***

وثمة حقيقة يجب أن أقررها هنا ، وهى ان الاختلال فى توزيع الثروة واتساع شقة الفوارق الاجتماعية يزداد حدة وشدة .. كلما بعدت عن القرية واقتربت من المدينة ، وقد ظهر ذلك واضحا عند انتقالى من قريتى «لوكو» الى «ساجرسا» العاصمة ، ومنها الى اوربا ، فقد بدأ الاختلال يشتد والفوارق تزداد ، فى المرحلتين الأخيرتين عنهما فى المرحلة الأولى ..

***

ثم جاءت آخر ليلة فى رحلتنا على ظهر السفينة قبل وصولنا الى ليفربول ، وهى الليلة التى أمضاها ركاب الباخرة فى الرقص

.. الا خمسة من الشبان الافريقيين ضمتهم احدى «الكبائن» ولم يشتركوا مع بقية الركاب فى رقصهم ..

كان حديثنا يدور حول «بريطانيا» تلك الأرض التى ستطؤها أقدامنا لأول مرة ، والتى كما أثارت المزيد من اعجابنا ، فقد أثارت المزيد من اشمئزازنا واستيائنا فى بريطانيا .

***

وتناول حديثنا الكلام عن المستقبل القريب ؟ وأى الجامعات سنلتحق بها ، وما هى الطريقة التى سنسلكها لنكتسب المزيد من الأموال التى سنحتاج اليها فى عطلاتنا السنوية .

وسرعان ما انتقل الحديث الى المستقبل البعيد .. وتساءل « اديمولا » القصير النحيل الذى يزين خـــده وشم جميل يرمز الى قبيلته : هل فى نية أحـدكم أن يشتغل بالسياسة عند عودته الى الوطن ؟ ..

فكان جوابى عليه أن ذلك متروك لحينه ..

وقال أحد الزملاء انه لن يبدأ التفكير فى الاشتغال بالسياسة الا بعد أن ينتهى من تعليمه ..

ويبدو ان زميلنا « اديمولا » لم يعجبه هذا الرد فقال :

ـ ولـكن عليـكم أن تذكروا أن بعض زعمـــائنا يتولون الآن عملية تخريب البلاد وتقويضها وعليكم انتنظروا الى الطريق الذى يسيرون فيـــه لتمزيق البلاد .. انهم يرتـكبون جريمة صارخة يستحقون معها جميعا الحكم عليهم بالسجن ..

ويجب أن نلاحظ بأن « اديمولا » كان قد أعد نفسه لدراسة القانون وانه كان مغرما بتوقيع العقوبات على كل من يختلف معه فى الرأى .

اما « أوكولى » الذى كان يدرس الهندسة فقد أعلن انه يوافق « أديمولا » على رأيه ثم زاد على ذلك بقوله : « وأعتقـد أيضـا ه يجب علينـا نحن الشـباب ان نبدأ على الأقل فى دراســة

الموقف السياسى فى بلادنا الآن .. ولتكن دراستنا له بعقلية الطالب وبأفكار جديدة دون أن نتقيد او نلتزم برأى حزب من الأحزاب ، وفى اعتقادى أيضا انه اذا تجرد الطلبة الافريقيون من نزعاتهم القبلية ، وبحثوا شئون بلادهم بعقلية مجردة صافية .. اذن لتهيأ لنا أن نتولى حكم أنفسنا بأنفسنا فى خلال عشر سنوات».

أما « أبياه » الوسيم العريض المنكبين فقد اعلن رايه ، فى ابتسامة عريضة ، تختلف عن لهجة حديثه ، وتخفى وراءها عزيمة من حديد فقال :

ـ عليكم بالأعمال لاقناع الرجل الأبيض بأننا قادرون على توجيه الضربات اليه وعلى هزيمته أيا كان الطريق الذى يسلكه معنا .. ان الرجل الابيض لا يهتم ولا هو ينصت الى الكلمات الرنانة .. ولنبدأ عملنا بعشرة آلاف شخص مثلايتظاهرون أمام مبنى الحكومة ، وليعقب ذلك زج عشرات من زعمائنا فى السجون .. هذا هو ما نحتاج اليه .. العمل .. والعمل وحده .. وهذا هو ما تحتاج اليه افريقيا كلها .

وتدخل صامويل فى المناقشة فقال :

ـ اننا فى «سونجهاى» مثلا نسير الهوينا لأننا ابتلينا هناك بوباء الجيل القديم الذى يتولى تصريف الأمور هناك .. ولست أرى انه من الممكن حمل شعب «ساجرسا» العاصمة ـ بما فى ذلك شبابها ـ على الثورة .. ما دام داء الولاء للقديم يتحكم فى عقول الناس هناك ..

وركز « ابياه » اهتمامه على كلمة « القديم » فقال :

ـ ان المستعمر البريطانى يبهجه ويسعده عندما يستمع الينا ويرانا نمجد القديم لا لشىء الا لأنه قديم .. لماذا لا نتخلى عن هذا ؟ لماذا لا نتطور ؟ ان كلمة «القديم» هذه تؤلمنى ويؤذينى سماعها ..

أما «منسه» زميلنا الخامس ، فقد ظهر فى تلك الليلة فى بذلته الجديدة البيضاء مما أثار ضحكاتنا الى درجة ان وجه الينا « صامويل » الرجاء بأن نكف عن الضجيج ، فقد كان الوقت فى

منتصف الليل .. وخشى « صامويل » أن يأخذ علينا هؤلاء البيض أننا نميل الى الضجيج فى حديثنا ..

وبعد أن هدأت عاصفة الضحك بدأ «منسه» حديثه فقال :

ـ عليكم الا تنسوا السلحفاة والارنب البرى ، وأنتم تتحدثون فى السياسة ، ان بعض المستعمرات الافريقية تبدو وكأنها تعيش على حافة الخطر ، مثلها فى ذلك مثل سائق اللورى الذى يندفع بسيارته بسرعة ٦٠ ميلا فى الساعة فى طريق وعر ، فاذا انفجر اطار سيارته ، فهو اذن سيواجه حالة أشد خطورة من حالة زميله الذى يسير حذرا وبسرعة ٣٠ ميلا فى الساعة ، واذن فعلينا ألا نهاجم التكتيك البطىء الذى تسير عليه بعض المستعمرات فى كفاحها نحو الحرية والاستقلال الى أن نرى بأنفسنا أى المستعمرات تمكنت من تحقيق استقلال مستقر دائم .

ثم مضى فقال :

ـ أنتم تعلمون ايمانى العميق .. وهو ان افريقيا ستنال استقلالها ، أن عاجلا أو آجلا .. وان ذلك سيحدث حتما .

ثم اسمعوا .. من قال ان الرجل الابيض هو الجنس الأرقى والأسمى ؟.. الا تدل مظاهر النشوء والارتقاء على كذب دعواه ؟ ان تكويننا الجسمانى وشفاهنا الغليظة وشعرنا المجعد يدل على ذلك ويؤيده ويبرهنه ..

واكثر من هذا ، فاذا كان الهدف من المدنيــــــة هو تحقيق التنسيق الاجتماعى . فانى اتساءل من هو الرجل المتمدين حقا ، الافريقى أو الاوربى ؟

انظروا الى حوادث القتل والانتحار والجنون والطلاق .. ثم احكموا بعد ذلك أينا أكثر تمدينا

ثم عندكم ايضا التفرقة العنصرية .. ثم ماذا يحدث فى هايد بارك .. ان ما يحدث هنـــاك ، يجعلنى أؤكد ما كنت اظنــه من قبيل الشك ، وهو اننا ــ يا سكان الغابات ــ نملك المزيد من الأعصاب والشرف اكثر مما نملك من عقول ..

* * *

وخرجنا من تلك الليلة يملؤنا الاعتقاد بأن مفتاح السياسة هو مفتاح جميع الأبواب ، وقررنا ان نظل على اتصال فيما بيننا وان نوجه عنايتنا فى الوقت الحاضر على الأقل الى الدراسة ».

- ٥ -

طالعتنا « ليفربول » فى اليوم التالى ، باردة قاتمة تغطيها السحب والغيوم ، وبدت لنا الأرض الموعودة ، أرضا غير موعودة، من خلال نظرتنا اليها ونحن على ظهر السفينة .

* * *

ونزلنا من السفينة ، ووقف كل منا فى انتظار القطار الذى سيقله الى جامعته

صحيح ان حركة المرور فى المدينة ومبانيها ومحلاتها العامة وهذا العدد الهائل من السكان البيض قد أثار فينا الدهشة . ولكن الذى أدهشنا حقا . هو منظر ذلك الرجل الأبيض ، فى ثيابه المهلهلة الملطخة بالأوساخ ، وهو يقوم بتنظيف مزاريب وبالوعات الشوارع .. ويجر أمامه عربة صغيرة يجمع فيها الادران والاوساخ

ولو سألنا سائل قبل الآن عمن يقوم بتنظيف المزاريب فى بريطانيا ، لاستبعدنا أن يقوم بهذا العمل أحد من الرجال البيض ، ولو قام به أحد منهم فمعنى ذلك ان بعض المزاريب قد حظيت بشرف كبير !

والذى نعلمه انه حتى مثل هذه الأعمال التافهة ، قلما يسمح للعاطلين من الافريقيين القيام بها .

* * *

قال زميلنا « أبياه » على الفور : الحمد لله الذى جاء بنا الى هذه البلاد لنرى ما نراه الآن . لقد كنت أعتقد على الدوام ان فى هذه البلاد ما يستحق الانسان ان يأتى من اجله

* * *

ان هــذه التعليقات التى بدرت منـــا ونحن نتطلع الى ذلك المنظر ، لا تعنى ان الرجل الأبيض قد فقد ما كنا نكنه له من احترام

ولكن الذى أضعناه حقا ، هى تلك الخديعة الـكبرى عن دور الرجل الأبيض فى أفريقيا ، ودعواه انه نصف اله ، ويجب أن تظل يداه نظيفتين أبدا ، لا من المال ، ولكن من الاعمال اليدوية الخشنة، والا يسمح له بأن يحمل من الاثقال ما يزيد عن حقيبة يد ولا أن يستعمل ما يزيد فى وزنه عن قلم حبر !

وقبل أن نكشف عن هذه الخديعة ، وتبدو لنـــا الحقيقة على وجهها الصحيح . كان دور الرجل الابيض فى الارساليات . أو فى الوظائف التنفيذية العليا فى بلادنا . دور الرجل الذى يجلس أمام المكتب على الدوام ، رئيسا أو مديرا ولا يسمح لنفســه مرة أن يقف أمام المكتب ، مرءوسا صغيرا !

وكنا نراه فى بلادنا ، يصدر الأوامر دائمـــا ولا يتلقى أمرا من احد ، وكان فى استطاعته أن يحصل على أية وظيفة ، تعجبــه وترضيه !

* * *

على أن منظر الرجل الابيض وهو يقــوم بتنظيف مزاريب الشوارع فى ليفربول كان من التجارب النافعة لنا والتى أفدنا منها الكثير . فقد أصبح من الممكن الآن أن نحب الرجــل الابيض ، لأن الحب لا يولد هكذا جــزافا ، بل هو وليــد الاتصال والمشــاركة الانسانية والتجارب المشتركة ووحدة المصير .

* * *

واستأنفنا مســيرنا خلف منظف المزاريب الذى تطلع الينـــا محييا وهو ينحنى على فرشاته ، ولم ننس أن نرد عليه التحية .

واختفت ، وسط هــذه التحيات الصامتة ، ذكرى ســلوك سقاة السفينة نحونا ، ذلك الســلوك الذى يشعرك كأن الآلهــة كلها ، قد أنزلت من القوانين والشرائع، ما أوحت به الى السقاة بأن

الرجلَ الأبيض هو الذى يجب أن يتولى الحكم . وان الرجل الأسود هو الذى يجب أن يخضع لكل حكم . وانهم سقاة واننا لا نعدو الا أن نكون مجرد ركاب فى السفينة ُسمح لنا بأن نكون على ظهرها وفى الدرجة الأولى بمقتضى ترخيص خاص!

* * *

أما صديقنا منظف المزاريب ، فقد كان أبعد من أن يضمر فى نفسه مثل هذه المشاعر ، وهى المشاعر التى كان لديه الوقت الكافى للتعبير عنها ، ولكنه بدلا من ذلك ، وجه الينا تحية ليفربول بقدومنا اليها !

* * *

على انه سرعان ما تكشف لنا ، أنا وزملائى من آلاف الطلبة الافريقيين الذين يتلقون العلم فى بريطانيا ، ان الانجليزى فى بلاده يختلف عنه فيما وراء البحار

ويبدو ان الانجليزى لا يختلف عن غيره فى هذه الظاهرة وانها من الصفات التى يشترك فيها معظم الناس . اذ يحاول الانجليزى فيما وراء البحار أن يبرهن على انه متفوق على الرجل الأسود هناك ، كما أن الرجل الأسود بدوره يسعى وهو فى الخارج ليبرهن على انه لا يقل شأنا عن الرجل الابيض

وبيدو ان اثبات هذا كله يستلزم من الجانبين انتحال بعض الأدوار الزائفة

* * *

فى اعتقادى أن الحل الوحيد لمشكلة الطلبة الافريقيين الذين يتلقون علومهم فى بريطانيا ، هو أن يسمح لهم بالعيش داخل البيوت وسط العائلات الانجليزية ، وليس من اللازم أن تكون هذه العائلات من العائلات الثرية التى تزيد ثروتها عن ثروة منظف المزاريب بل يكفى ان تكون من العائلات التى تحررت من الأفكار الزائفة بشأن الوضع الملائم لكل من الرجل الابيض والرجل الأسود ، لأنه عندما

يشترك الجنسان معا ، فى الحياة المنزلية ، بمعناها الكامل ، فمعنى ذلك زوال الأقنعة التى تخفى وراءها حقــائق الطباع ، وتتهاوى « الواجهــات » التى تحمل من الأسماء غير معانيهــا ، وتتوقف الادعاءات الكاذبة ويبدو كل على حقيقته ، ومن النادر جدا ، ألا يجذب الرجل الكامل الانظار ، والا يأسر القلوب .

* * *

وقد خرجت من تجــاربى فى بريطانيا ، وانا اعتقــد ان البيت الانجليزى يمكن أن يؤدى نحــو الطلبــة الافريقيين من الخدمات ما لا يمكن أن تؤديه الأموال التى تنفقها وزارة المستعمرات والتى تنفق فى حفلات الرقص والترفيه وما تقوم به المؤتمرات المختلفة

* * *

ويسرع بى القطار الى « نيو كاسل » فى صباح ممطر من شهر سبتمبر . وتتجه أفــكارى نحو اشياء أكثر تفاهة من مشــكلة الوصول الى حل لمشكلة التميز العنصرى فى بريطانيا

شعرت بالوحدة ، وتفرق أصحابى فى اتجاهات مختلفة . كل الى جامعتــه وكليته . وفارقنى « صامويل » فى طريقــه الى « برمنجهام »

وفى القطار الذى كان يندفع بى نحو « نيوكاسل » شعرت كأن أحدا من الركاب لم يشعر بوجودى ولم تقع عينه علي . ويبدو لى أن تلك هى طريقة الترحيب التقليدية عند الانجليز، عندما يجتمعون بأجنبى فى مكان واحد !

واتجه تفكيرى الى أمتعتى ، هل هى فى أمان ، وما هو مصير حقائبى وزجاجاتى ، ثم جعلت أفكر فى المنزل المؤقت الذى سأقيم فيــه الى أن انتقل منه الى مسكنى الدائم .. وهل ساجد هناك أخوانى من الطلبة الافريقيين ؟.. وما هى انواع الاطعمــة التى ستــقدم لى .. اترانى سأقبل عليها أو ستعافها نفسى ويمجهــا ذوقى ؟! ثم هل يا ترى سأتمكن من مقاومة جو هذه البلاد ؟

* * *

واشتد شعورى بالوحدة وانا فى مقصورة القطار ، وانها لتجربة مريرة ان يتعرض الانسان لهذه الوحدة القاتلة وسط جماعة من الناس لا يتحدث معهم ولا يوجهون اليه الحديث

* * *

وينتقل بى القطار من محطة الى محطة اخرى ، ويصعد ركاب وينزل آخرون ، وتتغير وجوه الناس فى مقصورتى واظل اشعر بأننى لا ازال وحيدا ، فى أول تجربة لى فى تلك البلاد

* * *

وتذكرت ، وانا فى القطار ، تلك الوحدة القاتلة التى احتوتنى فى الليلة الثانية لوصولى « ساجرسا » وسالت بعض قطرات الدموع من عينى ، غير ان مكانى لم يدم طويلا . فقد قررت الا أسمح للأحزان والذكريات أن تتغلب علي . وتذكرت ان امامى من مشاكل المستقبل ، ما يستحق ان استعد له واوجه اليه اهتمامى

* * *

ويساورنى احساس بأننى فى حاجة الى مصدر مجهول استمد منه الشجاعة والأمل ، ويستبد بى هذا الاحساس . ولم يبق على وصولنا الى محطة « نيو كاسل » الرئيسية سوى نصف ساعة . ثم أتطلع من نافذة القطار ، وتقع عينى على كاتدرائية « دورهام » فتبهرنى فخامتها وتبدو لى كأنها درامة صامتة تحكى ايمان المبشر ، وزايلنى مؤقتا شعور الوحدة القاتلة .

* * *

كانت أهدافى الرئيسية ، حتى ذلك الحين ، تقوم على اساس توفير الخبز والزبد، بالتحكم فى اللغة الانجليزية واخضاعها ،واجادة تلك الثقافة التى كانت لها اهميتها الاجتماعية والتجارية فى بلادى. على ان كاتدرائية دورهام جعلتنى أدرك ان اعمالى يجب أن توجهها اعتبارات أخرى غير الاعتبارات المادية الخالصة

وقررت طوال اقامتى فى بريطانيا ، أن أطوف بها ، كلما سنحت لى الفرص ، حيث أستمتع بالجمال الذى أجد فيه المتعة الدائمة

* * *

واستقر بى المقام أخيرا فى كلية كنجز ، احدى كليات جامعة دورهام ، وهى الجامعة التى أفخر بأننى واحد من خريجيها

وقد زاد من اغتباطى ان مبنى الجامعة الرئيسى يقع على بعد مئات الياردات من مكتبتها العامة ، ويصعب علي أن أصف مقدار بهجتى وانا أتطلع الى تلك الصفوف المتراصة من الكتب

والحق ان هذه الفرصة التى أتاحت لى أن أطالع الكثير من الكتب . لم تتح لواحد من عشرة آلاف من سكان بلادى . وقد شعرت وقتذاك أنه من الممكن مجالدة مشاكل الطعام والجو والوحدة ما دامت تلك الفرصة أصبحت ملك يدى وطوع أمرى

***

والحق ان شعورى بالوحدة القاسية، الذى لازمنى فى الساعات الأولى وانا فى قطار ليفربول قد زايلنى تماما ؛ ولم يكن ذلك نتيجة لوجود الكثير من الافريقيين فى جامعة كنجز ، ولكن لأننى وجدت فى هذه البلاد الشجاعة مزيدا من الترحاب ، ووجدت لدى معظم الطلبة استعدادا طيبا لابداء النصيحة والصداقة .مما دعانى الى أن أكتب لوالدى بأنه ليس هناك ما يدعو الى القلق وان الأمور تسير سيرا حسنا

* * *

وقد ظهر لى ، ان الطلبة البريطانيين على شىء من الغرابة والشذوذ فى عاداتهم ، ولا شك انهم لاحظوا مثل هذه الغرابة فى بعض عاداتنا .

ومن الأمثلة الواضحة على غرابة طباعهم رفضهم التسليم بضرورة الاستحمام يوميا حتى فى شهور الصيف الحارة !!

وكان يترامى الى سمعى فى كل مكان ، كيف يشير هؤلاء الطلبة الى « ليلة الاستحمام » كحادث خاص ، يحدث بصفة خاصة . وليس كشىء عادى يتكرر عادة كل أسبوع

ويذكرنى هذا بذلك المجرى المائى الصغير فى قريتى « لوكو » ذلك المجرى المستديم الذى يتقلص الى مجرد قطرات من الماء فى فصل الجفاف ، فاذا جاء فصل الأمطار . ارتفعت مياهه وارغد وازبد وأصبح شلالا يكتسح امامه الرجال

وسواء كنا فى فصل الامطار أو فى فصل الجفاف ، فهو أبدا موضع ارتياد العدد الكبير من الناس هناك

وليس هناك أمتع ولا أبهج للنفس من أن يغسل الانسان ملابسه وهو يستحم

وانى لأذكر مياه ذلك المجرى . فقد كانت باردة وهادئة حينا ، وكانت الصخور قاسية ناعمة وصالحة لضرب الملابس عليها لتنظيفها

وثمة قانون غير مكتوب فى لوكو كان يحكم تلك العملية العجيبة ، وهو انه لا يسمح أبدا باختلاط الجنسين فى ذلك الحمام

* * *

يقول التاريخ ان الفاتحين يتعلمون العادات الحميدة على أيدى المغلوبين . وهو قول حق ، فقد أخذ الانجيلز فى بلادنا يداومون هناك على الاستحمام

* * *

وعلى العكس من هذه النظرة البريطانية نحو نظافة الأبدان فى بلادهم ، فان مظاهر النظافة التى لا حدود لها ، تبدو فى منازلهم ، وحدائقهم ومتنزهاتهم العامة . وفى اعتقادى انه لا يضيرنا أبدا أن نتعلم منهم الكثير فى هذا المجال

* * *

ولا يمكن أن اغفل هنا ذكر « الفردية » التى يتميز بها الانجليزى وفقدان الصلات والالتزامات العائلية . ومقارنة ذلك بالعادات السائدة فى بلادنا

فقد نشأنا على أن تكون « العائلة » موضع الفخر والتمجيد ، وأن ندين لها بالولاء الكامل الصادق ، وأن نؤمن بأن هذا الفخر والولاء يجب أن يمتد الى أبعد الاقارب .

ومعنى كلمة « العائلة » عند الافريقى أسمى واعظم من معناها عند الانجليزى ، ولقد كنا نبتسم وهم يتحدثون فى بريطانيا عن الحياة العائلية عندهم . وهى الحياة التى لم نشهد من معانيها أو معالمها ، الا القليل التافه

وأين تلك الحياة من حياتنا العائلية فى « لوكو » أو «ساجرسا» حيث لا يستطيع كائن من كان أن يتخذ قرارا هاما دون مناقشة ما له وما عليه مع افراد العائلة

ولن يتخلف واحد من افراد العائلة ، فى المشاركة فى مختلف الحفلات ، أو تشييع الجنازات ، فيما عدا الريفى أو الذى على سفر بعيد .

فاذا أصاب أحد أفراد العائلة محنة .. فان أفراد العائلة اجمعين يسرعون الى مواساته وتقديم العون اليه . فاذا دقت طبول الفرح ، فلا ينقطع ذلك السيل العارم من المهنئين والمباركين . وهو لا ينقطع ايضا ، اذا هبطت على احدنا ثروة ، من زراعة أو تجارة

* * *

وكما ان الاخلاص دابنا فى الولاء للعائلة ، فنحن ايضا لا نلتزم الا الصراحة فى خصومتنا ، فاذا كرهنا احدا ، وجهنا اليه والى عائلته اللعنة ، بلا مواربة ولا حقد دفين

* * *

وهكذا يقوم نظام العائلة عندنا على التسامح وعلى اشد نظم الامن الاجتماعى سلامة

وخلال هذا كله ، أصبح من الممكن تجنب تلك الفوارق الشديدة بين الطبقات ، بين الثراء الفاحش والفقر الشديد . تلك الفوارق التى نشأت منها تلك المظالم فى النظام الاجتماعى الاوربى ، ونشأت عنها الثورات وأريقت فيها الدماء

ومن النوادر التى كنا نتناقلها فيما بيننا ، ان الانجليزى يعامل كلبه كما لو كان الكلب ابن أخيه . ويعامل ابن أخيه كما لو كان ابن رجل آخر غريب !

* * *

ويمر العام الأول من الدراسة سريعا ، وانتهز الفرصة واتوجه الى دورهام لتمتلىء نفسى من جمالها . وكان يحلو لى على الدوام أن أهيىء الفرصة لخيالى بأن يسبح فى ذلك الجمال الطبيعى . ولأرسم فى عقلى صورة تلك الحياة السحيقة فى تلك القرون البعيدة

* * *

ولقد دأبت على أن أقوم برحلاتى وحدى ، صحيح اننى كنت أستمتع بصداقة الكثيرين فى نيوكاسل ، ولكن حرصى على أن أقوم برحلاتى وحدى . هو لأننى كنت انظر اليها على انها ليست مجرد رحلات ، ولكنها دراسات كنت أشعر بأننى أستطيع استيعابها ما دمت وحدى

* * *

وبدأت أطول رحلة لى بتلك الزيارة لمنطقة البحيرة . وهى الزيارة التى لعبت دورا كبيرا فى تاريخ حياتى . وقد اخترت منطقة البحيرة لما أثارته فى نفسى من الاعجاب ، وهو الاعجاب الذى طفحت به كتب المؤلفين الذين تغنوا بجمالها

وقررت أن تكون الرحلة مشيا على الاقدام يتخللها ركوب اية سيارة أقابلها فى الطريق ، دون مقابل ، اذا استبد بى التعب

* * *

وقد حدث فى احدى مراحل الرحلة ، أن أشرت الى سائق احدى اللوريات بأن يقف لأقطع معه بقية المرحلة ، فتوقف الرجل ، وأجلسنى بجانبه . وقد بدا لى وأنا أتفحص وجهه الذى كانت تبدو عليه ملامح الطيبة والسذاجة ، انه صورة من صور الناس التى كان « تشارلز ويكنز » يتخيلها وهو يكتب قصته « مستر بيكويك » .

ويبدو أن السائق قد اذهله رؤية أحد الافريقيين فى ذلك المكان ، فجعل بدوره يتفحصنى ثم ابتدرنى قائلا :

ـ من كان يظن .. ان أراك هنا فى هذا المكان ، وفى هذا الصباح؟ ثم الى اين وجهتك أيها الشاب ؟

ـ الى كيزويك .. لزيارة منطقة البحيرة

ـ لا شك انك قادم من مكان بعيد ثم حدثنى من اى البلاد انت ؟

ـ من ساجرسا

ـ واين تقع ساجرسا هذه ؟

ـ انها عاصمة « سونجهاى »

ـ سونجهاى البرتغالية

ـ لا ! سونجهاى البريطانية

ـ حسن .. لا شك انها أصبحت ملكا لبريطانيا الآن .. ولكن لماذا لا نحاط علما بهذه التغييرات

ـ لأن الذين من واجبهم احاطة الناس علما بهذه التغييرات ، يجهلون هم انفسهم هذه التغييرات

وتفحصنى بنظرة قاسية ، ثم مضيت فى حديثى قائلا .

ـ اننى طالب فى جامعة كنجز ، والذى أعلمه ان الكثير من زملائى الطلبة يعرفون القليل عن امبراطوريتهم !

وعادت الى صديقى الجديد روحه المرحة ثم قال :

- تقول انك فى طريقك الى منطقة البحيرة ؟

حسنا .. انك ستستمتع برحلة طيبة هناك ..

ثم سألنى : هل تسافرون فى بلادكم هكذا مشيا على الاقدام ؟

- لا ! بل لدينا الكثير من اللوريات . وهى اللوريات التى نطلق عليها اسم « لوريات الأمهات » لأنها فى العادة تمتلىء بالنساء وهن فى طريقهن الى سوق القرية .. ثم ان هذه اللوريات عادة ما تكتب عليها بعض العبارات المسلية

قال صديقى :

- دعنا نسمع البعض منها ...

وجعلت أروى له البعض منهـا مثل « لا حلوى بدون عـرق » و « ايماننا بالله » و « الله هو الملجأ وهو الحامى »

وقال صديقى الذى أطربته هذه العبارات :

- يبدو أن حوادث المرور عندكم كثيرة ؟

- نعم . ولو ان ذلك ليس بالكثير بالنسبة الى أن حركة المرور فى بلادنا ليست شديدة . وقد دأب السائقون فى بلادنا على النجاة بأنفسهم اذا وقع لهم حادث .. ومعظمهم يترك سيارته ويهرب قبل أن يستجوب

- ولكن كيف يحدث هذا ، وأين رجال البوليس ؟

- ان عددهم فى بلادنا قليل

***

ونلمح فى طريقنا مقهى صغير تقف امامه مجموعة من اللوريات ، ويدعونى صديقى الى تناول قدح من الشاى و « لقمة » من العيش هناك ، وعندما نقترب من المقهى يقول صديقى :

ـ ان صديقي تشارلي في المقهى .. وهذه سيارته الحمراء ذات العجلات الثمانية تقف هناك ..

ان تشارلي من الطيور النادرة الذي يعرف الكثير ، نتيجة لتنقله هنا وهناك ، ولكنه ليس متعلما اذا قورن بك وبزملائك من طلبة الجامعة . ولكنه مع ذلك صاحب معلومات عامة وفيرة .. التقطها من هنا وهناك من الرحلات التي قام بها .. وهو على قدرة لأن يحسن الحديث مع الناس .

وتوقفت بنا السيارة ، وانتابني في بادىء الأمر شعور من الحذر حول قبولي دعوته الى المقهى على انني كنت ظمآنا ولم يكن في مقدوري أن اقاوم فكرة تناول قدح الشاي و « لقمة » من العيش

ودخلنا المقهى ، الذي رصت فيه بعض الموائد العارية ، وعليها الأكواب والاطباق والاقداح . وكان المقهى يعج بعشرات الناس ، انتحى كل منهم مائدة خاصة . ويبدو أن معظم رواد المقهى قد وجهوا تحياتهم الى صديقي السائق عند دخوله

واختار لي مائدة خالية ، ثم دعاني الى الجلوس ، ويبدو أن الانظار كلها كانت تتجه الي في دهشة

والتفت صديقي « جو » وهذا اسمه ، الى الجالسين قائلا :

ـ اقدم اليكم صديقي .. كان في طريقه الى منطقة البحيرة ، مشيا على الاقدام ..

ثم وجه الي الحديث قائلا :

ـ ما هو اسمك ايها الصبي ؟. ثم لاتكن هكذا خائفا منهم .. انهم لن يقضموك بين اسنانهم .. انهم جميعا ظرفاء

ـ اسمي كامارا ..

كان هذا جوابي في وسط شعور من عدم الراحة نتيجة للاهتمام الذي اظهره الجميع نحوي ، والواقع لقد كانت هذه اول

مرة أجد نفسي بين هذا الجمع من الانجليز ، وقد تكون هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها معظمهم واحدا من الافريقيين

***

ثم تمضي برهة ثقيلة حرجة ، يتجه بعدها نحوى رجل ضخم عريض المنكبين برونزى الوجه ويبدو أنه تعرض الى لفحات من مختلف الأجواء ، ثم يشد على يدى فى مودة تزيد عن تلك المودة التى يتصافح فيها الصديقان بعد غياب طويل ثم وجه الي الحديث قائلا :

ـ اهلا وسهلا بك بيننا هنا .. ان اختيارك منطقة البحيرة كان اختيارا موفقا ، فليس هناك اجمل منها . كما ان اختيارك القيام برحلتك مشيا على الاقدام ، كان أكثر توفيقا ، ومن حسن الحظ اننا ننعم بصحبتك وانك تنعم بتلك الصحبة

ورد عليه صديقى « جو » قائلا :

ـ أيها الصديق العزيز تشارلى . لا تزال كعهدى بك تحسن الحديث

واذن فهذا هو تشارلى الرحالة الذى حدثنى عنه جو والذى بدأت أنظر اليه باهتمام جديد .

***

والحق ، ففى خلال دقائق معدودة ، أحسست بأننى لم أعد غريبا بين هؤلاء الناس ، ومضيت أستمتع الى حكاياتهم وقصصهم . فقد كانوا أصحاب حصيلة عجيبة من مختلف الحكايات . منها ما يدعو الى الضحك ومنها القصص الحزينة ، والفكاهات المليئة بالبذاءة

والحق أيضا ان هذا ما كنت أسعى اليه ، وهو الاستماع الى مختلف القصص ومختلف اللهجات والى هذه اللغة التى يتحدث بها هؤلاء الذين ينقصهم العلم والذين لا تنقصهم التجارب التى مارسوها باختلاطهم مع مختلف الطبقات

وقص على « تشارلى » قصة سفره فى احدى السفن الحربية الى « ساجرسا » خلال الحرب العالمية الاخيرة

وقدم لنا الطعام ، قدمته لنا امرأة ضخمة الجثة ، وأدركت وقتها أننى ظمآن وجائع ، فأقبلت على الطعام بشهية عجيبة لم أشعر بمثلها من قبل نحو هذه الاصناف من الاطعمة البريطانية . وحاولت ان أقدم لصديقى قدحا من الشاى . معرضا ما كنت أحمله معى من النقود لأشد الاخطار . ولكن جووتشارلى رفضا ذلك، بوصفى ضيفهما ، ولأننى أجلس فى نفس المقهى الذى يعتبره كل منهما « مقهاه » ونصحانى بأن أحتفظ بأموالى فقد أجد عند منطقة البحيرة صبيا يشبه الصبيان الافريقيين الذى يلتفون حول السفن الحربية ، عند وصولها الى الموانىء الافريقية ، وتلقى اليهم بالنقود فى المياه ، فسرعان ما يقفزون فى الماء ، ويلتقطون النقود من قاع البحر ..

***

وجعلت أقص عليهم احدى القصص ، وهى قصة امرأة نصف « متمدينة » فى ساجرسا ، رزقت بطفل بطريقة غير شرعية ، وارادت التخلص منه ، فتوجهت الى السوق ، ووقع نظرها على سيدة أخرى تبدو عليها علائم الامومة ، وطلبت منها أن تستبقى الطفل معها لحظات ، الى أن تنتهى من شراء بعض الثياب .. واختفت الام بثيابها ، وتركت طفلها مع السيدة الحائرة ..

وقد مهدت هذه القصة ، بذكر حقائق الحياة فى أفريقيا ،وكيف ان الوالدين هناك لايفرطان أبدا فى أطفالهما ، لأن الاطفال تعتبر دخلا اقتصاديا هاما فى الاسرة .

ويبدو أن أصدقائى وجدا فى قصتى نوعا من العبث ، فلم يصدقها أحد على الرغم مما قدمته من احتجاجات

***

وقص علينا تشارلى قصة أخرى ، قصة اللصين اللذين تمكنا

من سرقة احدى العربات التى كانت تجرها سيارته ، اذ لم تكن في العربة سوى جثة كانت في طريقها الى المشرحة !

***

وأبديت لصديقي مخاوفى من أن استمر في رحلتى ليلا ، فعرض علي تشارلى أن أقضى ليلتى عند صديق لهما ، على أن تحملنى احدى السيارات فى الصباح الى كيزويك

* * *

ووجدت مزيدا من الصعوبة فى توجيه الشكر الى جو وتشارلى على حسن ضيافتهما لى

والحق فان الكثير من حياتى القادمة ، يعتمد على قدرتى من التفاهم وانشاء العلاقات مع الرجال الذين لم تتح لهم فرصة المزيد من العلم فى بلادى ، وقد سرنى جدا ، خلال وجودى فى ذلك المقهى أن أرى نفسى قادرا على الاندماج سريعا فى صحبة هؤلاء السائقين وأن تكون لى نفس تجاربهم وأن أكون قادرا على تبادل الحكايات معهم ...

* * *

وفى الصباح التالى ، حملتنى احدى السيارات فى الطريق الى كيزويك ، حيث فشلت محاولتى فى تسلق احدى الجبال لمشاهدة جانب البحيرة وقررت أن أسلك الطريق المستوى الذى يقودنى الى أحد شواطىء البحيرة الذى حاولت التماس الراحة عنده

* * *

هناك وعلى صخرة كبيرة تقع أسفل احدى الاشجار وقعت عينى على فتاة انجليزية ــ كما ظننت لأول مرة ــ ينسدل شعرها الطويل على كتفيها . وترتدى « بول اوفر » أحمر . وتتشح بوشاح ينسدل على كتفيها . وكان ظهرها نحوى فتوقفت ولم أدر ماذا أفعل ؟.

ثم أدارت وجهها نحوى ، وكان وجهها جميلا جذابا ، وفجأة وجدت نفسى مسلوب القوة الا من مجرد النظر اليها مأخوذا .

وليس في مقدوري أن أصف ذلك الوجه بالتفصيل ، هذا الوجه الذي ظلت صورته ، خلال شهور قليلة لا يبارح مخيلتي طوال يومي ، ولا تتركني حتى في ساعات نومي

لقد تعرفت الى الكثيرات من زميلاتي الطالبات ، في الحفلات التي كانت تعدها الجامعة . ولكنني كنت أعتقد على الدوام ، وكنت ابدي ملاحظاتي هذه الى الآخرين ، وهو انه فيما عدا ما ترتديه هؤلاء الطالبات من ملابس ، فليس ثمة ما تحتاج اليه بناتنا في الوطن ، لمنافسة هذه الفتيات البريطانيات

وكثيرا ما كانت تصل الى أذني تلك الشكاوى المريرة من بناتنا في الوطن وهي اننا نرى في نساء بريطانيا منافسا خطيرا لنسائنا الى درجة لا يتردد معها الرجل الافريقي في نقض وعوده الطويلة والضرب عرض الحائط بنصائح الوالدين .. ويسعى الى الزواج من بريطانية .

وانها لمأساة أن تمتلىء أسواق « ساجرسا » بالصبايا الحزينات وهن ينظرن الى رجال بلادهم تصاحبهم زوجاتهم البريطانيات في سوق المدينة .

***

ولست أعتقد أن ما كنت أعتقد فيه قد أصبح مجرد أفكار عابرة .

***

وعندما وقعت عيني جريتا علي ، شعرت كأنني أصبحت تحت تأثير سحر غريب واخيرا حلت عقدة لساني وقلت لها :

ـ أرجو أن تغفري لي اقتحام وحدتك .

فكان جوابها :

ـ صباح الخير : انني لم افاجئك .. ولكنك انت الذي فاجأتني .. اذن فعلام هذه الحيرة وهذا الانزعاج من جانبك ؟

ضحكت في عصبية . ثم سرعان ما استعدت هدوئي وهو الهدوء الذي صاحبه شعور آخر من بهجة الكشف من جديد وكنت اعتقد

أن احساسي هذا جاء نتيجة عثوري على انسان آخر أبدى استعداده للتحدث معى فى حرية تامة . ولكن سرعان ما وجدت نفسى أفحص ذلك الوجه الذى تقف صاحبتــه امامى . قطعة قطعة . وعينيهــا اللتين أصبحت أسيرهما من أول نظرة

قلت لها مرة اخرى :

ـ اننى آسف لسلوكى السابق.. وقد يبرره أن الانسان لا يمكن أن يحظى برؤية سيدة فاتنة ساحرة على الشاطىء كل يوم فى حياته

أغمضت عينيها قليلا ، ولم ترد على حديثى وشعرت وقتذاك ، أن اجتماعنا قد أوشك على نهايته وان قوس قزح أوشك أن يغيب وتغيب معه سعادتى فقلت لها :

ـ هل تسمحين لى بالانصراف ؟

وانتظرت جوابها فى لهفة .. وفى أنفاس مكتومة وعادت تنظر الي بعينيها قائلة :

ـ أين تعلمت الانجليزية ؟

فقلت لها ، وانا أقترب منها لأجلس بجوارها على ذلك الصخر :

ـ تعلمتها فى سونجهاى ، التى تقع فى غرب أفريقيا ، وسونجهاى مستعمرة بريطانية والكثيرون هناك الذين يعيشون فى المدن الكبرى يتحدثون الانجليزية ..

قالت جريتا :

ـ اننى من بريتوريا

قلت

ـ اذن .. فنحن افريقيان ..

قالت :

ـ ولكن لاتنس ان هناك اختلاف بين غرب افريقيا وجنوب أفريقيا .. اختلاف لا يقتصر على اللون وحده

قلت ؟

ـ ولكنه ليس اختلافا أساسيا كما تعلمين ...

قالت :

ـ هناك الكثيرون فى جنوب أفريقيا لايؤمنون بسياسة التفرقة العنصرية . اننى واحدة منهم . ويجب أن تعرف بأن الكثير قد هرب من البلاد لهذا السبب .. ثم لا تنس أيضا أن هناك أسباب تاريخية تكمن وراء تبرير سياسة التفرقة العنصرية

قلت :

ـ أخشى ان أقول بان رئيس وزرائكم هو من اشد الناس الذين يتمتعون بالكراهية فى أفريقيا .. وأعتقد انه ليس هناك من يسعى الى الكشف عن هذه الاسباب التاريخية أو الاهتمام بها وكل ما نعرفه هو أن رئيس وزرائكم يرغب فى عزل الافريقيين عنكم . لأنه يعتقد بأنكم ارقى من الافريقيين وأسمى منهم . وانه من أجل ذلك حدثت بعض الوقائع المحزنة لبعض الهولنديين الذين زاروا غرب أفريقيا ...

قالت :

ـ ان ما تقوله فظيع .. لأن الكراهية الناشئة عن التفرقة العنصرية ، تدل على ضعف النفوس سواء من الذين يمارسونها ، أو من الذين يقعون تحت ضغطها

اننى من البوير . واذا شاهدوك وانت تتحدث الي ، حتى ولو كانوا يجهلون مايدور بيننا من حديث فمعنى ذلك جلدى بالسياط . ولقد أدركت أخيرا مدى تحيزهم فى عدم تفهم وتقدير القدرة العقلية والانجازات الثقافية التى قام بها شعبكم ولكننى أدركت هذا كله نتيجة لاختلاطى بالطلبة الافريقيين هنا

ثم لا تعتقد بأن حملات الكراهية التى أعلنتها ستساعد على اقناع قومى بتغيير رأيهم

قلت :

ـ اننى آسف . كنت لا أعى ما أقول ؟ وحاولت تهدئتها فقلت :

ـ اننا فى بلادنا من محبى السلام ، ومن دعاة التسامح

ثم قالت :

ـ اننى لا أعتقد بأن المدارس عندكم تتحمل مسئولية التقارب بيننا ..

ثم سألتنى أيضا :

ـ هل أنت طالب ؟

* * *

ومضينا نتحدث ، وكشفت لى عن بعض تاريخ حياتها ، وعلمت منها أنها فقدت والديها وهى طفلة ، وانها جاءت بصحبة أخيها وصديقه ، وكلاهما يتلقيان علومهما فى لندن ، للاستمتاع بمناظر منطقة البحيرة ، وانهما أيضا توجها للاستمتاع برياضة التسلق التى لا تستمتع بها

* * *

ثم أدارت دفة الحديث قائلة :

ـ لماذا لا تقابل جان وفردريك يوما ما فى هذا الاسبوع ؟ ان جان وفردريك يؤمنان بسياسة التفرقة العنصرية . ولم تتح لهما الفرصة قط لكى يتحدثا الى افريقى ، حديث الرجل الى الرجل .. ويبدو لى أن هذه فرصتى الكبرى لأحملها على تغيير رايهما هذا ..

ثم أليس فى مقدورك ، أن تجتمع بهما ساعة أو ساعتين ؟ تتحدثون فى خلوة وفى هدوء ، يخرجان بعدها وقد وجدا أن هناك بعض الناس من الملونين ، من هو على مزيد من العلم ..؟! لماذا لا تبدأ هذه المحاولة ؟

فوعدتها بذلك ، وفى اعتقادى أن اجتماعى بهذين الرجلين هو مجرد فرصة مواتية لأراها مرة ثانية وان أعلم عنها المزيد

وحاولت أن تختفي مودعة ، ولكنني استبقيتها قائلا :

ـ لحظة واحدة من فضلك . انه من السهل ان يتعرف الناس بعضهم الى بعض ، بشرط أن يتعرف كل منهم اسم صاحبه .. ان اسمي هو كامارا .. كاسيمي كامارا

فكان ردها :

ـ كم أنا آسفة ! أنا جريتا هالز .. وجان هو شقيقي .. وفردريك خطيبي ..

واختفت وهي تنطق تلك الكلمة

-٦-

لم يكن البار في فندق « رويال كيزويك » من الفنادق المحرم علينا دخولها كما تخيلت وشعرت عند دخولي البار انني في حاجة الى مزيد من الشجاعة في اللحظات الاولى قبل أن أقابل « جريتا » واتجهت الي الانظار قبل أن تقع عيني على « جريتا » في الجانب الآخر من الحجرة

ويبدو لي ، انه يجب على كل انسان يتمتع بحواسه الخمس ، أن يفكر مرتين ، قبل أن يقرر الوفاء بمثل ذلك الوعد . هذا الوعد الذي اقرر هنا أن غايتي منه لم تكن السعي الى تحويل شخص عن رأيه ، بل لمجرد رؤية « جريتا » مرة أخرى . وكنت أعرف أيضا انها مخطوبة لرجل أيا كان وزنه للامور وايا كانت قيمته في الحياة ، فهو ـ من ناحية أخرى ـ لا جدوى منه بالنسبة لقومي .

ولكن عندما يرى الانسان نفسه وقد صرعه الحب ، فانه سيبدأ فقدان التحكم في قدرته على التفكير ووزن الأمور ، وستبدو أعماله وقراراته بعيدة عن المنطق والعقول ، وأكثر اندفاعا ، وأبعد عن الروية والحذر .

* * *

كنت وقتها أرتدى حلــة تليق بتلك المناسبة ، وكانت جريتــا وحدها ، وتبادر الى ذهنى أن شيئا ما قد حــدث وتلاشت مظاهر الاهتمام التى احسست بها عنــد دخولى البار . عند ما أشــارت جريتا الى غياب الرجلين قائلة :

– سينضم الينا جان بعد مدة .. أما فردريك فانه لن يحضر ؛ وأخشى أن أقول ، بأن فردريك رفض الفكرة رفضا باتا

لم يزعجنى هذا ، فى قليل أو كثير بل على النقيض من ذلك . أضللت نفسى وخدعتها ، فزعمت اننى كسبت معركتى الاولى مع فردريك .

قلت لها :

– لا تقلقى ولا تلقى بالا نحو هذا ... ان ذلك لن يعجل بفنــاء الدنيا ..

قالت جريتا :

– انه من الاهمية بمكان عندى أن تتقابلا وأن تسعى الى حمله على التخلى عن هذه المبادىء التى رسمها لنفسه .. لقد أتم دراسته وفى خلال أربعة اشهر سيعود الى بلاده ، فاذا لم تفعل شيئا ، فمعنى ذلك ضياع الفرصة الى الأبد .

– يبدو لى أن ما يقلق بالك ، هو ان يتم زواجــك به قبل ان يتحول عن مبادئه .

– هذه هى الحقيقة .

وتطلعت الي بعينيها مرة أخرى ، ويبدو لى كأن هاتين العينين تتحدثان الى بقولها : اذا كنت تتوقع منى أكثر من هذا الاخلاص ، فانك تضيع وقتك عبثا !

* * *

وسألتها عن مدى هــذا التعصب الذى يكاد يخنق فــردريك فقالت : انه تعصب عنيف ومضت تشرح أسبابه :

ـ لقد دأب والد فردريك على معاملة الوطنيين الذين يعملون في مزرعته في قسوة وعنف وكان الوطنيون يمقتون والد فردريك وعائلته مقتهم للسم ، وكانوا ـ تعبيرا عن كراهيتهم ـ يلقون بأعواد الكبريت المتقدة في صندوق الخطابات .

وفي مساء ما ، اشعل المزارعون النار في سيارة والد فردريك ! وكان الرجل المسكين في ذلك الوقت في غفوة ، وكان من آثار الانفجار أن أصيب الرجل بشلل ظل ملازما له طوال حياته .

أما فردريك فقد امسك بأول رجل قابله في طريقه . وكان الرجل بريئا ، واثبت التحقيق انه لم يشترك في حملة الغضب التي ذهب ضحيتها والد فردريك . ولكن الاخير ظل يضرب الرجل البرىء حتى اودى بحياته في الشمس المحرقة . وخرج فردريك من المحاكمة بغرامة كبيرة

وتوفي والد فردريك بعد عام واحد من هذا الحادث ، ولا شك أن الجراح التي اصابته والصدمة التي تعرض لها قد عجلا بوفاته، وحتى هذه اللحظة لم يتمكن احد من الكشف عن المسئولين عن هذا الحادث ..

* * *

هذا ما قالته « جريتا » في تبرير الغضب العنصري الذي يكاد يخنق فردريك ، واختتمت روايتها بقولها :

ـ وعلى ذلك فهناك أسباب تاريخية تسبب ذلك التعصب العنصري الذميم الذي يؤمن به انسان ما

وتطلعت الي بعينيها مرة اخرى ، وبدا عليها القلق ، كأنها كانت تخشى أن يكون أثر كلماتها علي قاسيا للغاية . وابتسمت بدوري في وجهها ، ثم انهمكت في تناول مشروبي . وفي لحظة خاطفة ، قلت لها ، وأنا أضم يدها الى يدي فوق المائدة :

ـ دعيني أتوجه اليهما في حجرتهما الآن . ولنرى ماذا يحدث ؟

وسحبت يدها من يدي قائلة :

ـ هذا الذى تقوله هو نفس ما كنت أخشى أن أعرضه عليك ؛ وان كنت فى قرارة نفسى أرغب فى أن أعرضه .

* * *

وشعرت فى قرارة نفسى بانه يجب أن أكسب معركتى الثانيــة الآن ، أو يضيع كل شيء منى الى الابد وان هذه المعــركة ستكون المعركة الفاصلة فى عينى جريتا

وأيا كانت نوايا « جريتا » نحوى ، فان مظاهر الاهتمــام التى بدت فى عينيها نحــوى ، جعلت نبضات قلبى تعود مرة أخــرى ، فى سباق مجنون سريع

وهاأنذا الآن فى طريقى لمواجهة الرجل الذى بدأت أقنع نفسى بأنه عدوى

قلت لها :

ـ هيــا بنا ، وقامت من مقعدها ؟ وهى تشــير الى الطريق ؛ واتجهنا الى الحجرة التى يقيم فيها فردريك ، وهناك لمحت انسانا طويلا على خلاف العــادة ، قوى البنيان ، شاحب اللون ، ويبــدو عليه الاضطراب ، ولمحت شخصا آخر ، كانت سحب الدخان تنعقد فوق رأسه وشاهدت أيضا صورة « جريتا »

قالت جريتا :

ـ لقد جئتكم بنبى الى حجرتكم .. ولست أدرى ان كانت جريتا بقولها هذا تريد أن يبدو الموضوع كله فى صورة دعابة أو انها ألقت بكلامها هذا نتيجة لرباطة جأشها .

قال فردريك :

ـ اذا كان ماتفعلينه هو مجرد دعابة .. فهى دعابة بعيدة عن التسلية ، وفى رأيى أن تنسحبى انت وبقية الممثلين من المسرح فورا فكان رد جريتا انها لم تقصد الدعابة ، وسمعت رنين الاهتمام يبدو فى صوتها وهى تستمر فى حديثها قائلة :

ـ اننى أريد أن تقابل السيد كامارا ، ولكنك ترفض .. ولست أدرى من سبب معقول لهذا الرفض . ان السيد كامارا قد عرض على فكرة الاجتماع بك أيضا ، وقد تحمست لفكرته ، ولم يدر فى خلدى أبدا انك ستأخذ الامور بهذا الشكل

قال فردريك :

ـ قلت لك بعد ظهر اليوم . اننى لم أقطع ستة آلاف ميل من بريتوريا الى بريطانيا لأتناول مشروبا ، بلا كلفة ، مع الزنوج الذين وطأتهم بقدمى فى التراب فى بلادى ..

وتدخل الرجل الآخر قائلا :

ـ اسمع يا رجل .. تجنب هذا الكلام

واستأنف فردريك كلامه قائلا :

ـ ان على جريتا الا تنخدع بهذا الأسلوب الناعم الذى يحاول هذا النوع من الأشياء ـ كامارا والباقون ـ خداعنا به . فانما هى تسير فى الطريق الوعر . وغير هذا ، فقد استمعت اليها بعد ظهر اليوم وهى تتحدث عن هذا الزنجى وكأنه حبيب الفؤاد وانها لاتزال تتحدث عنه الآن بنفس لهجة حديثها بعد الظهر .. اننى أتحدث بالصراحة ، لأنه ربما كانت الصراحة خير ما يساعد الجميع على أن يجد كل منا مكانه الصحيح .

***

ان لفظ الزنجى من الالفاظ التى تثير اشمئزاز واستنكار كل افريقى . ولن يستطيع كائن من كان أن يحول بيننا وبين الغضب اذا استخدمت هذه الكلمة ، سواء استخدمت على لسان الشبان الانجليز . او اذا نطق بها أطفالهم .

***

احسست بأننى اصبحت فى ثورة .. وأحسست بانه يجب عمل شىء ما . وبسرعة وبدون ابطاء توجهت بحديثى الى فردريك

قائلا : « لقد أبديت المزيد من الاحترام نتيجة لوجود هذه السيدة بيننا . وبذلت هذا كله حتى لاأساعدك بقبضتى هذه ، فى وضعك فى المكان الذى تصلح له ، لقد أهنتنى اهانة بالغة وتعمدت ذلك دون أى استفزاز من جانبى . وحتى قبل أن يتعارف كل منا الى الآخر . وأنه ليسعدنى جدا أن أستأذن فى الانصراف من حضرة شخص سيىء التهذيب » .

وشرعت فى الخروج . ثم عدت ثانيا . ولم أتمكن من مقاومة الاغراء الذى غمرنى وقتها نحو استخدام البلاغة الانجليزية فقلت له مرة أخرى « واذا سمحت لى فانه يسعدنى جدا أن أكشف عن عيوبك الأخرى فى الوقت والمكان الذى تختاره ، وأؤكد لك يا سيدى بأنه اذا أتيحت لى الفرصة لأطأك بقدمى . فاننى لن أنحنى وقتها وأنا أضربك بنعلى هناك .. أسعدت مساء يا مستر هيرتوج ! »

***

وتوجهت الى « هوستل الطلبة » لأنام وارتميت على فراشى وبدت لى « جريتا » و « هيرتوج » كأنهما مجرد شخصيات فى قصة انتهيت من قراءتها توا .

***

وأيقظنى من غفلتى صوت حارس « الهوستل » يبلغنى بأن شخصين من فندق رويال كيزويك يرغبان فى مقابلتى وطلب منى الا استبقيهما طويلا ، لأن الوقت متأخر ، وقد أوشك أن يغلق أبواب « الهوستل » .

***

وتوجهت على الفور الى « الفراندة » التى تحيط بالهوستل لمقابلة الزائرين الغريبين . وهما جريتا وشقيقها جان اللذان حضرا ليعتذرا لى عما حدث فى الفندق وقال لى جان ان فرديك كثيرا مايتملكه جنون الغيرة بالنسبة لجريتا وعرض على أن أتناول معهما الطعام فى الفندق . بعد أن أبلغنى بأن فرديك قد انتقل الى فندق آخر .

وتطلعت الى جريتا . لأنه كان من الواضح أنها هى التى اقترحت دعوتى الى تناول الطعام معهما وبدت منها هذه الكلمة « أرجوك » .

وبدت لى جريتا فى ذلك الحين فى صورة تختلف اختلافا كبيرا عن الصورة التى بدت فيها على شاطىء البحيرة ، كما أنها بدت فى صورة تختلف عن صورة السيدة التى كنت معها منذ اثنتى عشرة ساعة فقط .

وغمرتنى صورتها الجديدة بفيضان من قوة قاهرة ، أغرقت معها ذكرى كل ماحدث فى ذلك اليوم وأسرعت قائلا « أشكركما على هذه الدعوة . ويسرنى أن البيها » .

***

وبقيت وحدى أفكر . ورايت اننى احمل بين جوانحى حبا عظيما نحو فتاة من جنوب أفريقيا لم تزد معرفتى بها عن ساعات وانها مخطوبة بالفعل لشاب يمتلىء قلبه بالكراهية المرة نحو الجنس الذى انتمى اليه . ووجدت أنه بقبولى الدعوة الثانية لزيارتهما ، ابدو كأننى أتقدم متعمدا ، خطوة أخرى نحو مجرى من الماء اجهل عمقه ولم تتح لى فرصة دراسة تياراته وأوقات مده وجزره . وأدركت أننى أتعرض لاخطار لاتهدد شخصى وحدى ولكنها تهدد مستقبلى أيضا .

وعدت أتحدث الى نفسى مرة أخرى . فى محاولة للتخفيف من هذه الاخطار قائلا : ان العطلات المدرسية تكفى وحدها ، عندما يجىء موعدها ، لتناسى هذه الأحلام .. ثم ماذا يضر لو استطاع الانسان أن يستمتع بساعات قليلة بريئة فى صحبة فتاة .

وساعدت هذه الأفكار على طرد مخاوف الأخطار التى ساورتنى فاستغرقت فى نوم عميق .

وطلع على الصباح التالى . مشرقا . واستقر رايى على مغادرة كيزويك ، بعد تناول الطعام مع جريتا وشقيقها جان الذى قررت أن أطلب منه الاحتفاظ بملابس الرحلة معه . الى حين الانتهاء من تناول الطعام وبعد رحلتى الصباحية القصيرة فى وادى «ديرونت» القريب .

***

قابلت جان فى بهو الفندق . وقد وافق على الفور أن يحتفظ عنده بملابس الرحلة . وقد بدا عليه أنه استعاد روحه المرحة . وأقبلت علينا جريتا فى الوقت الذى كنت أحاول فيه الانصراف . وبدت لى هى الاخرى وقد طرحت عن نفسها ذلك القلق والانزعاج الذى خلفته حوادث الليلة الماضية . وعادت مرة أخرى لتذكرنى بموعد الغداء . واقترحت أن تشاركنى هى وشقيقها فى رحلتى الصباحية .

وهنا قال شقيقها جان : « قد لا يرغب السيد كامارا فى صحبتنا هذا الصباح . والى جانب هذا فقد أمضيت الأمس بطوله فى عمل متواصل . وأحب أن استريح اليوم » .

فقالت جريتا : دع السيد كامارا يتحدث عن نفسه .. فكان جوابى انه يشرفنى صحبتكما لى . ولكن جان عاد واعتذر بدوره .

***

ومضيت أنا وجريتا فى نزهتنا الصباحية . وفى ذلك الصباح الذى كان أسعد ما طالعتنى به الدنيا . قضينا وقتا فى القراءة . والبحث فى مشاكل بلدينا . ويبدو اننا كنا ندرك بأن هذا التقارب الذى يجمعنا اياه سحر الطبيعة . كان يعنى زيادة فى التقارب بيننا

***

كانت رحلتنا هذه . رحلة البداية فى سلسلة الرحلات المتشابهة خلال الاسبوعين التاليين . ولقد أصبحت الآن ولا مفر لى من التراجع . واخذت أنا وجريتا نتابع رحلاتنا اليومية . لكشف منطقة البحيرة . وليكشف كل منا عن صاحبه . وأبلغتنى « جريتا » أنها فسخت خطوبتها الى فردريك فى ذلك المساء الذى شهد حادث زيارتى له . بعد أن ظهر لهما اختلافهما فى الرأى بشأن التفرقة العنصرية . مما يجعل حياتهما الزوجية مستحيلة فى بلادهما ، وقد بدا لى أنها ترغب فى صحبتى لاتفاقنا فى التفكير والتجارب . وهو ما عجز عنه فردريك .

وتتوالى الرحلات . تراودنى فى خلالها فكرة الزواج من جريتا .

والمشاكل التى تعترض هذا الزواج . على اننى على كل حال ، لم أجرؤ على مفاتحتها فى هذه المسألة .

***

لم نسمع شيئا عن فردريك الذى كنا نعتقد انه يقيم فى مكان آخر مجاور .. وبعد يومين أو ثلاثة .. كانت رؤيتنا لجان نفسه نادرة ..

***

لقد أدركت أن العاطفة التى شدتنى شدا الى جريتا . لم تكن عاطفة الحب . ولكنها كانت عاطفة الافتتان الجنونى الصارخ .

كنا لانزال فى سن مبكرة . وكان كل منا قد افتتن بصاحبه . واخطر من هذا . أننا كنا نمارس أول تجربة لنا .

والذى أعلمه أن عاطفةالحب والافتتان التىتجمع بين شخصين . يختلفان فى الجنس ، تكون أشدعنفا وقوة . لأنها منتزعة من ضدين . اذا لمس أحدهما الآخر . وقع الانفجار وحدثت الكارثة . ولو كانت عاطفة الحب التى شدتنا الى بعضنا ، أقل قوة . وكان السبيل قد تهيأ أمامنا لوزن الاخطار التى نعرض انفسنا لها . لكان قد تهيأ لنا أن نفكر على الاقل . فى أن نتمهل وأن نضع حبنا فى بوتقة الزمن . على سبيل الاختبار .

***

ولكن الذى حدث هو أننا اندفعنا فى الطريق .. وانذرنا رياح الاخطار بأننا لانعبأ بما تحمله من تهديد .. وأسرفنا فى الوعود بأن يظل حبنا خالدا الى الابد .

***

ونسيت آخر رسالة من ابى . والآمال والقلوب والانظار التى تتجه نحوى ونحو مستقبلى .

***

ووقعت الكارثة فى ليلة من ليالى الصيف ، قضيتها معهاجنباالى جنب .. وكانت قد أحضرت معها غطائين بدلا من غطاء واحد ..

وفى نيتها أن يضمنا فراش واحد ، وطلع علينا الفجر . وهدات بطلوعه عواطفنا المشبوبة .. ووقفت أمامنا عقولنا تتحدث الينا وتسائل وتحاسب .

وهكذا .. وبعد أسبوعين من الافتتان الصارخ ، شربنا رحيق الآلهة الذى كان مذاقه حلاوة مريرة .

***

وصحونا عند الفجر . فى تفكير صامت . واخذت افكر فى افريقيا . واخذ تفكيرها يتجه بدوره الى افريقيا أيضا .

***

وفى المساء . كنا نجلس الى مائدتها فى الفندق . دون أن نأكل وأحسسنا بأن هناك فاصلا بيننا . وأخذنا نبحث عن الكلام دون جدوى . وبدا أن كلا منا يرغب فى أن يتحدث الى نفسه وحدها . وشعر كل منا بأن هناك جروحا عميقة أصابتنا من الداخل واننا فى حاجة الى بلسم ودواء .

***

وغادرنا الفندق دون أن نمس عشاءنا .. وأخذت ذراعها فى ذراعى . واندفعنا فى الظلام الى الطريق . وطرق اسماعنا صوت موتور سيارة يتأهب للحياة . ولم نلق بالا اليه . فقد كانت عقولنا سادرة فى لجة من التفكير العميق الذى لا يسمح لها بأن تفكر فى مثل هذه الأمور التافهة .

وأخذ صوت الموتور يرتفع ولكن السيارة لم تضىء أنوارها ، ووقفنا فى نصف الطريق .. لا عن فزع ولكن عن دهشة .

وفوجئنا بالسيارة تندفع نحونا . وحاولت يائسا انقاذ جريتا . وسمعت صيحات من ألم فظيع تئن بها جريتا . ثم فقدت وعيى بعد ذلك .

- ٧ -

عثرت على نفسى فى الليلة التالية . ممـددا فى المسـتشفى لا أستطيع تحريك ساقى اليسرى .

وعندما عاد الى صوابى . كان أول ماسألت عنه هو جريتا ، وكان الجواب على سؤالى نظرات الاشفاق التى وجهتهـا الى ممرضتى والتى اغنت عن كل حديث .

وظلت حياتى معلقة على خيط رفيع طوال أسبوع . وعنـدما علمت أن اصابتى ليست مميتة ، بدأ ينتابنى شعور محرق للانتقام وأخذ الثأر لمقتل جريتا . وكنت كلما سمح لى الاطباء .. أتحدث الى ضابط البوليس عن الحادث . وكان ضابط البوليس بدوره يؤكد لى أن كل شىء قد اتخذ للتعرف على السيارة وسائقها . وفى مرة أخرى شرحت لضابط آخر أن سائق السيارة تعمد الاندفاع نحونا . ونحن نقفز من منتصف الطريق فى التماس النجاة .

وابلغت ضابط البوليس عن اسم « فردريك » وعن القصة الكاملة لعلاقتى بجريتا وشقيقها وفردريك .

***

ونمر ثلاثة أيام دون الوصول الى معـلومات تكشف عن سر الحادث .

والاسوا من هذا . أن فردريك استطاع أن يقنع رجال البوليس بأنه كان فى طريقه الى لندن يوم الحادث وساعته . وأن شقيقها جان استطاع أيضا اقناع رجال البوليس بأنه كان فى مكان آخر يوم الحادث وساعته أيضا .

وبلغ من شدة اصابتى وتأثير الحادث . أن اضطر الاطباء الى عزلى وفحصى نفسانيا . فقد خشى الاطباء أن يكون قد أصابنى مس .

وبدات استعيد صحتى واطالع الرسائل التى وردت الى من

« ساجرسا » وكتبت الى والدى عن تفاصيل الحادث دون أن أشير في خطابى الى جريتا .

وقررت أن أمضى فى طريقى لجمـــع الادلة التى تثبت على « فردريك » تهمة قتل جريتا .

وزارنى صامويل . الذى حاول عبثا العثور على . وقد فرح صامويل لرؤيتى . ولكننى كتمت عنه قصة جريتا .

وغادرت المستشفى فى منتصف الصيف . وليس فى جيبى سوى خمسة جنيهات . اذ كنت قد أنفقت مبالغ المنحة المدرسية كلها فى الاستشارات القانونية التى قمت بها لاتهام فردريك . وهى الاستشارات التى نصحنى المحامون بأنه لا أمل مطلقا فى اتهـــام فردريك . أما بقية أموالى فقد انفقتها فى مصاريف علاجى .

وانتقلت الى ليفربول . بحثا عن عمـــل . ينسينى ذكرياتى واكتسب منه مايساعدنى على اعباء الحياة . ومواصلة الدراسة .

وفى ليفربول أيضا . أدركت أن رجال البوليس والمحامين كانوا على حق . وأنه لا سبيل الى اتهام فردريك وأن حـــكاية جريتـــا وقصتها قد انتهت .

***

وجعلت أطالع الصحف بحثا عن الوظائف الخالية . ويجب أن أقرر هنا بأننى كنت أبحث عن وظيفة تليق بتعليمى وتتفق مع ثقافتى ولكنى حاولت عبثا ، ومنعنى كبريائى من التماس المعونة من مكاتب المساعدات .

ويبدو أن لونى قد لعب دورا خطيرا فى حرمانى من الوظائف الكتابية الخالية .

والذى أذكره اننى عثرت على وظيفة كتابية خالية . واتصلت بأصحابها تليفونيا فقالوا ان الوظيفة لاتزال خالية وانهم فى انتظارى لاختبارى شخصيا . وعندما وقع نظرهم على أجابونى بأن الوظيفة قد شغلت ! .

ولا شك أن لونى قد لعب دورا كبيرا فى هذا الرفض المفاجىء . وأن لونى يناقض تماما صوتى فى التليفون .

وضاقت بى السبل . وفى ليلة ما . خرجت أهيم على وجهى وفى اعتقادى أن هناك أسبابا أخرى تحول بينى وبين شغل احدى الوظائف اللائقة . وفى تلك الليلة . قادتنى قدماى الى مقهى يضم الافريقيين الذين كانوا يحاولون نسيان متاعبهم وهمومهم فى كئوس الخمر التى يعبونها عبا .. وفى رقصهم وغنائهم . وأدركت حينئذ أن هذه الكثرة الهائلة من المهاجرين الملونين فى بريطانيا ، تلعب دورها فى تنمية الشعور الزائد فى بريطانيا . وهى ألا يسمح لغير الرجل الابيض بشغل الوظائف التى يرى نفسه فى حاجة اليها .

أدركت وقتئذ اننى اذا كنت فى حاجة ملحة الى العمل . فيجب على أن أتنازل بعض الشىء . وألا تتطلع عيناى الى ما كنت أسميه بالوظيفة اللائقة بثقافتى وتعليمى .

***

واخيرا . عثرت على الوظيفة . وهى حارس ليلى فى مخزن للبضائع فى طريق ريجنت . ولم يكن لتلك الوظيفة من المزايا الا اننى كنت فى خلال طوافى حول المبنى . أستأنف مطالعاتى فى الادب الانجليزى الكلاسيكى . على أن زمهرير الليل .. أثناء فترة عملى والضجيج الذى كان يقلق قدمى فى المسكن الذى كنت أقيم فيه فى شارع مجلس النواب . وهو الضجيج الذى كان يحول بينى وبين النوم نهارا . ويضطرنى الى الاغفاء فى ساعات عملى الليلية . جعلنى كل هذا أسعى للحصول على وظيفة أخرى . وفى خلال أسبوع واحد . تمكنت من الحصول على وظيفة كتابية صغيرة فى أحد مخازن السفن . وكان العثور على هذه الوظيفة . بمثابة ترقية جديده لى . وقررت وقتها أن أؤدى واجباتى جيدا .

***

ويدهشنى الآن تلك السهولة واليسر اللتين كنت أعالج بهما

أمورى المنزلية فى ذلك الحين .. ولا شك أن الايام التى قضيتها فى الارسالية لعبت دورا كبيرا فى هذه السهولة .

وقد تعلمت وأنا فى ليفربول الا اخفى اعجابى الشديد بهؤلاء العمال الذين يعملون على ظهور السفن أو فى أحواضها فقد كانوا من أصحاب القلوب الطيبة . على الرغم من لغتهم المبتذلة فى بعض الاحيان . وكان الواحد منهم يفخر بعمله . سواء كان عملا يدل على المهارة . أو لا يدل عليها . وكان ولاؤهم عجيبا وصادقا فى مشاعر المحبة بينهم .

واستفدت الكثير فى خلال شهر واحد من عملى وقد تعلمت الكثير عن حياة الانجليز ولغتهم ، وبدأ تفكيرى بعد ذلك يتجه الى المستقبل الذى بدا لى مظلما وفكرت فى الاتصال بصامويل لاستعين به على استئناف دراستى ولكننى عدلت عن ذلك . فالذى أعرفه عن صامويل أنه لن يتردد فى تعريض مستقبله للاخطار . فى سبيل مساعدتى . وأنه لن يتردد أبدا فى ذلك .

***

وتقودنى قدماى الى كاتدرائية شارع مجلس النواب واستمع هناك الى موسيقى الترانيم ، وفى ختام الترانيم . أظل وحدى فى مقعدى حالما مفكرا ، والمح رجلا وامرأة يقتربان منى ويحاولان التحدث الى ، وأحاول الاعراض عنهما . اذ لم تكن لى رغبة فى الاتصال بأى انسان غريب عنى كما أننى وجدت نفسى يكاد يقتلنى الخجل فلا أستطيع أن اتحدث الى سيدة بيضاء .

وبدأ الرجل حديثه قائلا : انها موسيقى رائعة بلا شك وفهمت منه أن تذاكر حضور الحفلة الكبرى يوم الاحد قد نفدت جميعها وعرض على أن يمنحنى تذكرة عند زيارتى له فى منزله .

ودعانى الرجل هو وزوجته للعشاء ، وجعل يسألنى كيف وصلت الى ليفربول .. ورويت له كيف وصلت اليها قادما من قريتى « لوكو » .

قال الرجل على الفور « لوكو » فى مستعمرة سونجهاى : بلد الماس ؟

واكتشفت على الفور أن مضيفى من المشتغلين بتجارة الماس.

قال الرجل : ان الذى اعرفه أن عمليات تهريب الماس قائمة على قدم وساق فى سونجهاى .

قلت له : يبدو أن ذلك صحيحا . وأنه من الصعوبة بمكان وقف هذه العمليات أو الكشف عنها .

قال الرجل : أن عمليات التهريب تجرى هناك على نطاق واسع. ومن القصص التى تروى هناك أن أحد الرجال أعاد بناء كوخه من جديد لاخفاء قطع الماس التى لم يحسن اخفاءها بين جدرانه .. ولاشك أن هذه القصة تنقصها الدقة . ولكن رجال الجمارك والمحامين يعلمون علم اليقين ، بأنه اذا ألقى القبض على مهرب واحد . فهناك عشرة آخرون يقومون بعملياتهم بعيدا عن الرقابة.

***

وتطرق الحديث بينى وبين الرجل الى ان أدرك أخيرا اننى احمل معى قطعة من الماس .. وهى ذلك الكنز الذى أوصانى به والدى الا أفرط فيه .. والذى لا يعلم أحد أننى أحمله الا « صامويل » .

***

واخذ الرجل يتطلع الى قطعة الماس التى بهرته وقال لزوجته: ان قطعة الماس هذه يساوى ثمنها هذا المنزل الذى نقيم فيه ، وما يحتويه من أثاث ورياش !

واخذ مضيفى « موريس » يسألنى اين تعلمت الانجليزية وماهو نوع الدراسة التى أتلقاها فى بريطانيا ؟. وقال لى أنه عندماشاهدنى لأول مرة فى الكاتدرائية أدرك أن هناك مايشقينى وانه اعتقد بأنه قد تكون موسيقى باخ « دموع الاحزان » هى التى أثارت فى نفسى مكامن الاحزان .

ولم أشأ أن أجيبه عن سؤاله . فاكتفيت بقولى : أن الانسان فى الحياة يظل دائما فريسة للصعود والهبوط .

وأخذت أفكارى تتجه من جديد الى قطعة الماس الموضوعة فوق المائدة . ومرت الامسية سريعا فى بهجة وسرور . واستأذنت من مضيفى فى الانصراف شاكرا لهما حسن وفادتهما وكرم ضيافتهما .

***

وتساءلت ، وأنا فى طريقى الى المنزل . كيف غاب عن تفكيرى أمر هذه الماسة . ولكن السنا ننسى فى الغالب اكثر الاشياء التصاقا وقربا بنا ؟ أليس فى هذه الماسة الحل البسيط لمشاكلى الدقيقة؟.

وقد حدث بعد الحفلة الموسيقية أن عدت مع موريس الى منزله . وأبلغته اننى أصبحت مفلسا وطلبت منه أن يعمل على التصرف فى الماسة لأتمكن من اتمام دراستى فورا .

قال موريس : أن الامور ليست بالسهولة التى تراها .. ثم لماذا لم تبلغنى عن متاعبك المالية قبل الآن ؟ .. اذن لأسرعت من فورى وعرضت الماسة على أحد أصدقائى وأنقذتك من ليالى القلق التى تساورك .. ومع ذلك فسأقوم غدا بعرض الماسة على أحد أصدقائى من المشتغلين بصناعة قطع الماس .

ويبدو اننى كنت قلقا ومتلهفا على الحصول على المال . فقلت لموريس : اننى أرغب فى التصرف فيها أو فى قطعة منها لشدة حاجتى الى المال .. ثم لماذا لانجرب رهنها عند أحد السماسرة .. كلها أو جزءا منها .

قال موريس : ان الرهن لايجدى .. ثم ان المشتغلين بعمليات الرهن لايعرفون مدى قيمتها .. أما اقتراحك بأن تتصرف فى قطعة منها . فلا يمكن ان يتم ذلك قبل عرضها على أحد أصدقائى المختصين .

وطلب منى موريس أن أزوره فى نفس اليوم ليبلغنى بما حدث .

***

وهكذا جاءت ماسة والدى فى الوقت المناسب وحصلت على مبلغ من المال . فى مقابل بيع اجزاء منها . تكفى أرقامه لتقديم

هدايا الى موريس وزوجته وأن ادفع لصديق موريس أجرا مجزيا . وأن أعود مرة أخرى الى جامعة كنجز . وأن أحتفظ الى جانب هذا بمبلغ محترم من المال .

***

وقبل أن أغادر ليفربول . وجدت أنه من المحتم على أن أدخل كاتدرائية المدينة مرة أخرى . فتذكرت على الفور مقابلة موريس لى هناك . وكيف بدأت الغيوم تنقشع وتصفو سماء حياتى فى تلك الكاتدرائية .

وهناك توجهت بالشكر الى الله . الذى تعلمت منذ طفولتى انه لا يغفل عن مصائر الذين يسعون بكل ما يملكون من قوة وعزم . الى حياة أفضل .

- ٨ -

مرت الأسابيع الثلاثة الأخيرة فى كلية كنجز مرورا سريعا .. أمضيتها كلها فى عمل شاق متواصل والواقع .. فقد كان على جميع الطلبة الافريقيين ألا يتركوا لأنفسهم فرصة للراحة فى تلك الجامعات حتى يكونوا هم وزملاؤهم من الطلبة البريطانيين على قدم المساواة ..

واستأنفت اتصالى ، فى خلال تلك الفترة ، بصديقى « صامويل » الذى خانه الحظ . شأنه فى ذلك شأن بعض الطلبة الذين لا تعوقهم العقبات عن السير فى طريق النجاح . ثم يصادفهم الحظ السيىء . فتقف فى طريقهم عقبة . يتعثرون عندها .

ويؤدى به سوء الحظ الى أن يفقد منحته الدراسية بعد ثلاث محاولات فاشلة لا تنتهى بحصوله على الشهادة الدراسية النهائية فى الطب . فيتحول فى دراسته من الطب الى القانون . وكانت موارده المالية قد نفذت فراح يستعين بالمساعدات التى كانت تأتيه من أهله وأصدقائه . وقد قبل أخيرا . بعد اعتراض والحاح . معظم المبالغ التى اقتصدتها نتيجة لتصرفى فى الماسة . على أن تكون قرضا يوفيه فى حينه .

وكان صامويل . صاحب العقليـة المبتكرة الخلاقة يعتمد فى كسب نفقاته الخاصة . عن طريق الأفكار الاعلانية المبتكرة . التى كان يبيعها للمؤسسات التجارية .

وكان صامويل قد انتقل من لندن الى نيوكاسل . وأقام معى فى مسكنى ، اذ قرر أن يدرس الاقتصاد أولا قبل أن يمضى فى دراسته للقانون ..

كان صامويل « بائع الأفكار » صاحب عقلية مبتكرة خلاقة كما قلت . وفى احدى الأمسيات جلسنا معا نعدل ونصحح فى احدى أفكاره المبتكرة .

كان الغرض من فكرته الجديدة ــ كما يقول ــ هو مساعدة الشركات على الاستغناء عن خدمات المحصلين « الكمسارية » وتقوم على أساس أن يضع الراكب قطعـة من العملة ــ عن قيمة المسافة التى سيقطعها ــ فى آلة معقدة تلحق خلف المقعد الذى سيجلس عليه الراكب ، وعند نهاية المسافة التى دفع عنها الراكب أجرته ، يسقط المقعد أتوماتيكيا ــ وفى كثير من الرفق ــ بالراكب معلنا أن محطة الوصول قد حلت ! . وان قيمة أجره قد انتهت ! .

والذى حدث بعد ذلك أن صامويل باع بالفعل فكرته الجديدة لأحد الاشخاص الذى توجه بها فورا الى مكتب تسجيل براءات الاختراع لتسجيلها . والذى لم يسمع عنه شىء بعد ذلك . وقيل ان أعضاء اتحاد نقابات « الكمسارية » كمنوا له فى الظلام ولقنوه درسا لن ينساه !.

* * *

وانتهيت من دراستى بنجاح وقررت العودة الى بلادى . ولم أشأ أن أترك صديقى صامويل دون أن أقدم له المبالغ التى اشتركنا فى اقتصادها . لتساعده فى مواجهة مشاكله الماليةلفترة محدودة .

ولم أشأ انتظار حفلات التخرج الرسمية ، فقد استبد بى شعور طاغ بضرورة العودة الى الوطن بعد نجاحى فورا .

كنت أنا وصامويل ، فى خلال العام الأخير لدراستى فى بريطانيا ، نتتبع باهتمام التطورات السياسـة فى بلادنا ، وكنا نطالع ما تأتينا

به الصحف التى تصدر فى بلادنا عن أنباء هذه التطورات . وغالبا ما كنا نقضى الليالى فى مناقشة التقدم البطىء الذى يقوم به زعماؤنا السياسيون فى سونجهاى ، فى سبيل حصول البلاد على استقلالها وماذا يجب عمله للاسراع فى أن تنال البلاد هذا الحق المقدس .

وفى الليلة الأخيرة لوجودى فى نيوكاسل ، أقسمت أنا وصامويل بأن نعمل معا ، وبأسرع وقت مستطاع لكى تنال بلادنا استقلالها ، وتخليص وطننا من قبضة الاستعمار وأدرانه . وحررنا وثيقة بذلك ، وقعت عليها أنا وصامويل ، وهى الوثيقة التى أحتفظ بها الى الآن . كأعز ما أملك فى الحياة .

***

وعدت الى وطنى بعد خمس سنوات ، وبدا لى أن أشياء كثيرة قد تغيرت وتبدلت . فقد ادركت شركات الملاحة أخيرا أنها ستخسر الكثير اذا رفضت قبول هذا العدد الهائل من الركاب الافريقيين بالدرجة الاولى ، وقصرت ركوبها على ذلك العدد القليل من الأوربيين وحدهم .

وظهر لى ايضا أن ميزان القوى بدأ يميل فى أفريقيا نحو تحطيم حواجز اللون والجنس ، وبدأ سعاة السفن من الأوربيين يجرعون الحبات المرة التى كانوا يقدمونها فى تعاليهم وتشامخهم الى الافريقيين من قبل .

وكان من دواعى غبطتى ، او تسليتى ، منظر هؤلاء وقد تبدلت طباعهم . فاذا بهم يعرضون خدماتهم على الركاب الافريقيين فى غير حقد . وفى محاولة استرضائهم فى معظم الأحيان .

وثمة امر آخر ، اعتبره بمثابة تحول هام ، هو أن السفن أصبحت تستخدم سقاة من الافريقيين . الذين أصبحوا بدورهم موضع الرضا والاحترام من جانب زملائهم الأوربيين ومن جانب الركاب الأوربيين على السواء .

والواقع أن هذا التحول الخطير الذى شاهدته على ظهر السفينة ، قد أثار لهفتى على الوصول الى الوطن سريعا لأرى بنفسى

مدى ذلك التحول الذى حدث هناك فى خلال تلك السنوات الخمس .

* * *

ووصلت الى أرض الوطن لأجد أن أهلى وقومى قد تجرعوا أيضا تلك الحبات المرة ،الكبيرة العسرة الهضم ، وهى حبات المادية فى المدينة الغربية .

كانت معالم البلاد قد تغيرت .. مبانيها وجسورها وطرقاتها وحوانيتها . على أن أكثر ما لاحظته هو ما حدث فى اتجاهات التفكير ونواحى التصور عندهم .

على أن أكثر ما أزعجنى هو الدوافع الجديدة التى بدأت تدفعهم الى العمل ، وأسس العلاقات الجديدة بينهم .

وفاجأنى تحول آخر خطير . هو رغبة الناس الملحة فىالوصول الى القوة بسرعة ، وفى الاثراء سريعا ، وهى صفات كلها جاءت على نغمات الاستعمار الغربى وموسيقاه التى ملأ بها البلاد .

ولعبت عمليات تهريب الماس دورا خطيرا فى التحول الكبير الذى طرأ على الاخلاق والمعاملات . وامتلأت شوارع المدينة بالسيارات التى كانت تستخدم استخداما غشيما . فلم يقتصر استخدامها على الركوب وحده . وانما استخدمها البعض كحجرات للنوم أو لاستقبال الضيوف .

وكان « موسى » واحدا من هؤلاء الذين أثروا سريعا ، والذى أعرفه عنه انه لم يكن يملك الا القليل عند مغادرتى البلاد . وعند عودتى اليها . كان قد انتهى من اللمسات الاخيرة لمنزله الفخم فى « ساجرسا » وهو المنزل الذى لم يكلفه الا مجرد رحلات يقوم بها الى لندن عن طريق لبنان . بعيدا عن أعين رجال الجمارك بما كان يحمله من قطع الماس .

* * *

لقد ظهر لى أن هذه النزوات التى استبدت بالناس فى سبيل الحصول على الربح الحلال . هى التى جعلتهم يدوسون على المثل العليا وتحمل المسئوليات الملقاة على عواتقهم نحو بلادهم .

وأصبح الكفاح من أجل لقمة العيش في ساجرسا صعبا وعنيفا بالنسبة لهؤلاء الناس الذين لم تهبط عليهم تلك الثروات المفاجئة وارتفعت الاسعار نتيجة لتلك الهجرات المتلاحقة للعمل في المناجم .

وطرأ تحول خطير على العائلة وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض وهي العلاقات التي لم يكن يدور بخلد أحد أنها ستكون موضعا للتغيير في يوم ما .. وبدا كأن الترابط العائلي ، الذي كان ركيزة الحياة الاجتماعية في البلاد . قد ذهب به بريق الماس ، وأودى به تلك « الفردية » التي نشر الاستعمار ألويتها بين العائلات وهذا التمجيد الدائب له .

* * *

وظللت الشهور الطوال وأنا أرفض الايمان بهذه الفكرة الجديدة وهي أن أتخلى عن أية مسئولية نحو كائن من كان ، الا أن اكون مسئولا عن نفسي لاغير .

وتقلدت وظيفتي الحكومية الجديدة وهي مدرس في المدرسة الثانوية بقريتي « لوكو » وكنت أحصل على مرتب يكفيني الحياة التي كنت أحياها ، وكان عملي مريحا بعض الشيء ، وكان الذي يدور في خلدي أن الحياة ستستمر هكذا . وكنت قد تركت جانبا ، والى حين ذلك الوعد الذي كتبته على نفسي أنا وصامويل بأن نعمل سريعا نحو استقلال البلاد ، وكان في حسباني أني سأمضي في الحياة هكذا . والى وقت طويل . الى أن وقعت عيني ذات مساء على احدى الصحف البريطانية .

كانت فرصة اطلاعي على تلك الصحيفة من الفرص التي لن انساها أبدا . ففي ذلك الحين كنت أعيش في دوامة غريبة من التفكير في بلادي ، تطن في اذني هذه العبارات التي كنت أسمعها وهي : « كل انسان مسئول عن نفسه ، وليأخذ الشيطان ما يبقى بعد ذلك » وهو الكلام الذي وجدت انه ليس من الولاء للوطن أو العائلة أو القبيلة أن أقبله كقاعدة .

وكان قد مضى على وقت طويل منعت فيه نفسي من مطالعة

الصحف المحلية التى بدت رخيصة فى مظهرها وفيما يكتب فيها .. مما دعانى الى أن أقصر قراءاتى على الصحف الأجنبية .

والذى آلمنى فى صحافتنا الحالية أيضا ميلها الى الاثارة ونشر الأخبار المثيرة ، والذى اذكره تلك القصة التى نشرت حول لصوص الحقائب .. وكيف أن واحدا من هؤلاء اللصوص ـ كما قالت تلك الصحيفة ـ .. فكر فى التماس الهرب والافلات من مطارديه .. ووجد ان الوسيلة الوحيدة هى أن يفرغ بعض ما كانت تحويه الحقيبة المسروقة من نقود تحت أقدام مطارديه أثناء فراره .. وقد نجحت الفكرة .. وانشغل المطاردون له فى جمع أوراق البنكنوت عن مطاردته !

ولا شك ان الحادث .. هو صورة أخرى من تلك الصور التى يتعلمها اللصوص فى هوليوود واذا كانت « أفريقيا » قد «تمدنت» بهذه الصورة ، فان ذكراها أصبحت تؤلمنى !

***

فى ذلك المساء وقعت عينى على مقال نشرته احدى الصحف البريطانية تحت عنوان « جنوب أفريقيا » وهذا الخبر مؤداه : ان حكومة جنوب افريقيا بعد ان انتهت من حرمان الملونين من الادلاء بأصواتهم فى الانتخابات العامة ، قررت عزلهم فى أحياء خاصة بهم تشبه المخازن ..

أغمضت عينى فى ألم ، لم تبرح مخيلتى تلك الصورة الحزينة القاتمة التى كتبها صاحب المقال .. وكيف ان رجال البوليس من البيض جردوا السكان الوطنيين من منازلهم ليقيم فيها البيض . ولم يكن هناك مايبرر ذلك الطرد الا أن تلك المنازل كانت تمتاز برحابتها واتساعها ، وكان هؤلاء السكان قد انذروا بأنهم سيطردون من منازلهم فى خلال أربع وعشرين ساعة ، وقبل أن تمضى دقائق معدودة من ذلك الانذار ، توجه رجال البوليس البيض . لتنفيذ أمر الطرد فورا . ونشرت الصحيفة أيضا صورة قاتمة ظالمة لما حدث وهى صورة أحد رجال البوليس من البيض وهو يجر سيدة وطنية كانت تصرخ احتجاجا على طردها من منزلها . وكان رجل

البوليس يدفع السيدة الى لورى قريب كما لو كان يدفع حيوانا وليس انسانا .. ومما زاد من أحزانى ومن بشاعة الحادث وشناعته . ان تلك السيدة كانت حاملا ..

وتركتنى الصورة بلا حراك ، شعرت بعدها كأن دمى يغلى فى عروقى ، ثم شعرت بعدها بموجة عمياء من الغضب تستبد بتفكيرى وكيانى ..

ولست أدرى كم من الوقت مضى على وأنا على تلك الحال .. ولكن الذى أذكره اننى بدأت أعود الى نفسى مرة أخرى ، ثم أخذ بدنى يرتجف فى عنف وشدة ، وسرت البرودة فى جسمى ، ووجدت نفسى مضطرا الى تدفئة نفسى ..

تمر بنا الحوادث كل يوم وكل ساعة ، وبعضها يترك فى النفس أثرا باهتا ، وبعضها لا يمحى اثره أبدا ، وقد تسعفنا الذاكرة على نسيان الكثير من الحوادث ، وقد يختفى مجرى الماء الذى يسير فى الغابة حينا من الزمن ، ولكنه حتما سيعود مرة أخرى الى الظهور ..

وبدت لى فى تلك اللحظات ، صور حية من الماضى الذى عشته .. والتى بدأت بزيارتى الأولى «لساجرسا» العاصمة ، والصبية التى كانت تستحم تغمرها السعادة وقت سقوط الأمطار ، ومظاهر الحيرة والارتباك التى لازمتنى عند وصولى الى ليفربول ، وذلك الحلم الذى تحول الى كابوس خلال رحلتى الى منطقة البحيرة .. وبدت لى نفسى فى تلك اللحظة ، أقل ما مر بى من تجارب .

***

وصحوت من نومى منتعشا ، وكنت أدرك تماما فى صباح ذلك السبت ما استقر عليه رأيى . وأمضيت يومى فى مكتبى أكتب الى «صامويل» وكنت أدقق فى اختيار الكلمات والمقترحات .. أجل.. ففى خلال الليلة السابقة صحت عزيمتى أخيرا على أن أمضى قدما فى تنفيذ القرار الكبير ، وهو أن أكرس نشاطى للاشتغال بالسياسة .. حتى يمكن ـ ابتداء من « سونجهاى » ومنها الى افريقيا كلها ـ

أن يتحرر النـاس من السـيطرة التى فرضهـا عليهم الاستعمار والاستعماريون ..

وتضمنت رسالتى الى «صامويل» أن يفكر فورا فى امـكان عودته سريعا لمساعدتى فى تأسيس حزب سياسى فى البـلاد .. وقلت له اننى لا اطلب منه هـذا لمجرد انه من «ساجرسا» واننى من أهل الشمال ، وان اشتراكنا فىعمل سياسى مشترك له أهميته .. ولـكننى أعرض عليه هذه الفكرة لأننى اكبر منـه سـنا .. وأنه أشد أصدقائى اخلاصا . وأبديت له أيضا مدى اعجـابى باختراعاته وبعقليته الخلاقة . وان صفاته كلها تعتبر مدخرا لعملية التخطيط للكفاح السياسى الذى أتصوره فى عقلى .

***

وتوجهت بعد ذلك لزيارة والدىَّ ، وفى نيتى أن أطلب منهما اختيار زوجة من قريتنا ، ولست أشك فى أنهما سيفاجآن بذلك . لأننى كنت أول الافريقيين الذين يتلقون علومهم فى الخارج ويتحول عن العادة المـألوفة ، وهى الزواج من أجنبيـة ، أو من افريقيـة تلقت هى الأخرى علومها فى الخارج ، على أننى قررت الزواج من قروية ليتم لى بذلك الانفصال النهائى عن العـادات الغربيـة فى حياتى الخاصـة ، تمهيدا لمـا استقر عليـه الرأى النهائى ، وهو الاشتغال بالسياسة .

وخلال الأسابيع التى تلت ذلك القرار ، لم أضيـع وقتـا من الأوقات التى كنت أخلو فيهـا من الدراسة ، دون أن أقوم بعمل يمهد لحياتى السياسية القادمة ، ويدعم خطواتها ، فجعلت أطوف القرى لأتعرف الى اكبر عدد ممكن من الناس . وكنت أرتدى خلال تلك الزيارات ملابسى الوطنية ، ولم أسمح لنفسى بأن أتحدث بالانجليزية الا اذا دعت الضرورة الى ذلك .

وكتمت عن كل من أعرفه ما اعتزمت عليه ، وما أضمرته فى نفسى ..

وبدأت مشروعاتى السياسية تتخـذ لها شكلا وقالبا ، وكان ذلك على أثر الرسالة التى تلقيتها من صامويل ، والتى قال فيها

انه قرأ اقتراحى بلهفة وجد .. وان خطابى كان استجابة لسلسلة العادات التى عاش فيها طوال الأشهر القليلة الماضية .

وأبدى والداى سرورهما برغبتى فى الزواج ، وبدأت المفاوضات داخل نطاق العائلة لاختيار الزوجة الصالحة لى .

وأخذ والداى على عاتقهما مهمة اجراء الترتيبات اللازمة للاحتفال بزواجى ..

وبعثت الى صامويل بنفقات العودة وبدأت فى دراسة النشرات والصحف التى بدأت تصلنى ، وأخذت فى تبويب الموضوعات وتصنيفها حسب أهميتها للعمل الذى كرست نفسى من اجله ..

وامتدت رحلاتى وزياراتى هنا وهناك .. ووجهت عنايتى الخاصة الى التعرف الى رؤساء القبائل وغيرهم من ذوى المكانة فيها .. فى كل مكان كنت ازوره ، ولم اهمل فى الوقت نفسه فى عملى ، فقد كنت اعلم ان حاجتى الى الأجر الذى يأتينى منه ستستمر الى وقت طويل ، هذا الى اننى كنت اخشى أن يقال عنى بأننى اتجهت الى السياسة لفشلى فى مهنة التدريس ، لأن معنى هذا كله تدمير مستقبلى السياسى ، ووصمى بالاهمال .

***

وتوجهت الى المطار لاستقبال صامويل .. واغريت مندوب صحيفة «الديلى نيوز» على نشر صورة فوتوغرافية ظهرت فيها وأنا أحتضن صامويل عند وصوله . وقال المندوب فى صحيفته : وقد تردد ان هذين الصديقين يعدان الخطة لتكوين حزب سياسى جديد فى المستقبل القريب يحمل هذا الشعار « الوحدة الآن .. ثم الحكم الذاتى فى خمس سنوات » .

وبدأت أمهد لمولد الحزب الجديد وأنا اتساءل .. هل ياترى يولد هكذا فى صمت وسرية ؟ أم تقام لمولده الافراح ؟ ثم ماهو رد الفعل الذى سيحدثه مولده عند الناس ؟

وأدركت وقتها .. ان مجرد نشر صورة فوتوغرافية تجمعنى أنا وصامويل ، وظهور شعار للحزب ، تعقبه فترة صمت تمتد الى بضعة أسابيع .. كل هـذا لا يكفى لاجتذاب الجماهير ، كما انه لا يمكن اعتباره أفضل بداية لحياة ومستقبل سياسى جديد ..

ثم أدركت أخيرا ان خير ما يثير الانتباه ، هو أن يكون شعار الحزب أكثر انطباقا على الواقع . ثم لا بأس بعد ذلك من التزام السرية فى بداية تكوين الحزب .

والحق ، لقد كان هدفنا الأول من انشاء الحزب هو حمل الناس أولا على الالتفاف حولنا ، ثم نبدأ بعد ذلك مرحلة الكفاح والنضال ..

ثم يجب أن أقرر هنا ان الاعلان عن تأسيس الحزب قد اسفر عن نتائج مرضية ، لم تكن نتوقعها قط فقد أثار اعلانه دهشة معظم الناس ، وسرت بين الشيوخ الهمسات حول تهور الشباب واندفاعه ..

ثم حدث أكثر من هذا ، اذ حضر الى مسكنى ثمانية من الشبان منهم خمسة من الشمال ، وثلاثة آخرون من ساجرسا . جاءوا خلال الاسبوع الثانى من الاعلان عن تكوين الحزب ليتعرفوا على الحزب الجديد .

ويجب أن أعترف هنا بأنه ربما كان افتقارى الى الايمان أنا وصامويل .. هو الذى حال بيننا وبين أن ندرك بأن فى «سونجهاى» من الشباب الذين فى سنى أنا وصامويل .. من يستجيب هكذا وبتلك السرعة الى ذلك النداء ..

وتطرق الى تفكيرنا وقتذاك ، ان أكثر الذين ينضمون الينا بعد ذلك .. قد تدفعهم الرغبة الى الانضمام .. رغبتهم فى الحصول على السلطة الشخصية والمزيد من الدخل أو منصبا وزاريا . على أن هؤلاء الثمانية ، والذين استجابوا لدعوتنا هكذا فورا ، وهى الدعوة التى كنا نعتقد بأنها بعيدة عن الحقيقة ، هؤلاء الثمانية هم فى الحق ، زملاؤنا الروحيين حقا

كنا نجتمع في مسكني كل يوم ، نستعد للمعركة الاولى . وكنت في ذلك الحين ألح على صاموئيل أن يسعفنا بالمزيد من أفكاره الجديدة .

ولم يضن علينا « صاموئيل » بتجاربه ..

كنا مجموعة مختلطة من الناس ، منا ثلاثة من الموظفين المدنيين، الذي كان الاشتغال بالسياسة محظورا عليهم ، وكان عليهم أن يمارسوا نشاطهم معنا في كثير من الحذر . ومنهم اثنان من المحامين تخرجا حديثا ، كانا يحصلان على معاشهما بشق الانفس في بلد أصبح فيه من العسير على أصحاب تلك المهنة اكتساب معاشهم .. ومن بينهم أيضا صحفي لاينتمي لأى حزب ومدرس وكاتب .

* * *

وكنا نعتبر بالنسبة لمستوى الحياة في سونجهاى ، من اصحاب الدخول المحترمة في تلك المدينة

وعلى الفور ، اتفقنا على ان يدفع كل منا ١٠٪ من دخله في المصرف باسمى ، وبين حين وآخر ، كان البعض منا يوافينا بمبالغ من الاموال ، لاندرى ما هو مصدرها ، ولم نجد من الضرورى أن نسأل عن ذلك المصدر

وحتى يكون عملنا قائما على أساس متين ، اتفقنا على أن يتقن كل منا لغتين على الأكثر من اللغات الست التى يتحدث بها سكان « سونجهاى » وأخذنا ندرب أنفسنا على القاء الخطب السياسية باللغات المحلية التى نتقنها ، وكنا في ذلك الحين نتطلع الى الصحف، ونتلو من فقراتها ، لندرب أنفسنا على التفكير ولنكتسب القدرة على الافصاح عن أنفسنا ولنكتسب أيضا القدرة على الخطابة في الجماهير

لقد تعلمنا في افريقيا ، ومنذ ازمان بعيدة أمورا لم يصل الى كشفها الأوربيون الا منذ زمن قريب وهى : ان العقل البشرى له سلطان لا حدود له على الجسم ، ومثال ذلك اننا نعلم ــ مجرد العلم وليس على سبيل الاعتقاد ــ من تجاربنا الشخصية ، انه من الممكن أن نسبب المرض أو الموت لشخص ما ، دون أن نلجأ الى

وسائل مادية أو كيميائية ، وثمة ثلاثة طرق ، من السهل وصفها وان كان ليس من السهل ممارستها ، لتحقيق ذلك الفرض

أولها : أن تحمل ضحيتك على الاعتقاد بأنك تملك القدرة على الاضرار بها .

وثانيها : أن تحمله على الاعتقاد بأنك ترغب فى الاضرار به .

وثالثها : أن تقوم أمامه بتأدية بعض الأعمال التى ترمز الى اللعنات التى ستصبها عليه .. وسترى بعد ذلك أن عقله هو الذى سيتولى بنفسه اما جلب الامراض اليه ، أو التعجيل بوفاته .

اننا نؤمن بأن النجاح فى الحياة ، انما يكمن فى الايمان أكثر مما يكمن فى الذكاء والصناعة

- ٩ -

وتمر أيام قليلة على ذلك الاجتماع ، ويزورنى صامويل ومعه « كاى كاى » المحامى وأحد العشرة المؤسسين للحزب ومعهما نسخة من « الديلى نيوز » قال صامويل :

– ان هذه الخرقة البالية أصبحت أكثر عونا لنا أكثر مما اذا كنا نملك جميع أسهمها .

ونظرت الى الصحيفة التى كانت تحمل على صفحاتها الأولى صورتى أنا وصامويل عند وصوله الى البلاد لأول مرة ، وعند استقبالى له عند هبوطه من الطائرة

كتبت الصحيفة تحت الصورة ، وفى صفحتها الأولى تقول : «أين هو الحزب الجديد ؟ » وقالت انها تذكر قراءها بأنها كانت قد نشرت من قبل بأن الحزب الجديد يسعى الى تحقيق هدفه القائم على الوحدة الآن ، ثم الحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات

وقالت الجريدة بعد ذلك : انه قد تردد بأن مؤسسى الحزب – تقصدنى أنا وصامويل – ومعهما حفنة من المؤيدين لهما ، قد لجأوا الى القفارى والغابات فى التماس القوة الروحية ، بطرق ووسائل لم تخشعوا عنها ، لكى يضمنوا نجاح المغامرة الجديده التى عقدوا العزم على المضى فى طريقها .

كانت عبارة القوة الروحية هى التى أثارت صامويل ، وجعلتنى أتطلع الى صامويل ، فى كثير من الريبة والشك .

فقلت له على الفور :

ـ لا أستطيع أن أفترض أو أعتقد بأنك قد لعبت دورك فى هذا النشر ..

نفى صامويل عن نفسه أن يكون قد قام بأى ...

ومهما يكن من أمر ، فلا يشك انسان فى أن نشر الخبر على هذه الصورة ، هو من الافكار التى جاد بها خيال صامويل وقريحته وعقله الخلاق لأن « القوة الروحية » كانت من التعبيرات التى داب صامويل فى الأيام الأخيرة ، على استخدامها فى دعاياته

وعلى كل حال ، فقد ظهر لنا أن نشر الأخبار عن حركتنا على هذه الصورة يفيدنا كثيرا

وقبل أن يبدأ حزبنا هجومه الرسمى ، وجدت أن ثمة رسالة هامة علي أن أؤديها فقد أخبرنى والداى بأنهما عثرا لى على الزوجة المنشودة ، وان اجراءات الزواج الأولية قد تمت بالفعل .. وتم زواجى من « فاطماتا »

وبعد زواجى ، وجدت أن نشاط حزبنا الجديد ، يستدعى منى الكثير من الوقت والنشاط ، وبدأت فكرة الاستقالة من مهنة التدريس تراود عقلى على الدوام . وكانت رحلاتى الكثيرة هى التى تجعل من المستحيل علي أن أؤدى عملى كما يرضينى

* * *

ومن الأنظمة التى قررناها اننا قمنا بتقسيم « سونجهاى » الى عشرة أقسام ، وعهدنا الى كل واحد من مؤسسى الحزب العشرة برياسة كل قسم ، وأن يكون مسئولا عن مهمة زيارة رؤساء القبائل وزعمائها فى القسم الذى يشرف عليه خلال عام . وكانت خطتنا تقضى بالتعرف على زعماء القبائل ، واطلاعهم على مشروعاتنا

وجعلنا من « ساجرسا » العاصمة جزءا مستقلا وعهدنا الى صامويل مهمة الاشراف عليه . ولم يحل ذلك من اعترافنا منذ

البداية . بأن هناك مهام أشد صعوبة تنتظر « صامويل » أكثر من المشاكل التى سنواجهها فى أى مكان آخر . اذ كانت « ساجرسا » هى القطاع الذى كنا نتوقع أن تنظم فيه المعارضة صفوفها ، وهى أيضا مركز أصحاب المصالح المكتسبة التى سيجدون أنفسهم ، تهددهم التطورات السياسية المنتظرة التى قررنا المضى فى تنفيذها من أجل الوطن كله ، لا من أجل أصحاب مصالح معينة .

وظل صامويل على رأس السكرتارية التنفيذية وكانت مهمته الاشراف على عمليات التخطيط الخاصة بخطوات الحزب

وبناء على اقتراحه ، قررنا تأجيل فكرة عقد اجتماع كبير للحزب وانصاره ، الى أن يتهيأ لنا العدد الضخم من الانصار الذى يمكنه أن يواجه أى تهديد نتعرض له .

وكنا ندرك أن أول اجتماع لنا ، سيكون مصيره الفشل ، اذا لم يحظ بتأييد الجماهير ، واذا اقتصر حضوره على المكافحين وحدهم .

وجريا على المثل المألوف الذى يقول بأن النجاح يعقبه النجاح ، فقد قررنا تأجيل أول اجتماع للحزب الى أن نضمن نجاحنا فى بادىء الامر ، انصياعا لما كان « صامويل » يكرره على الدوام ، وهو لن تبدأ هجومك بالقاء كرات من الشيح ..

* * *

وبدأ اعضاء الحزب يتزايد عددهم بانتظام . وقد تضاعف عدد أعضاء الحزب فى خلال ثلاثة أشهر وفى الشهر الرابع ، لم نطرد من عضوية الحزب الا فردا واحدا .

كان لكل منا طريقته الخاصة فى الدعوة الى الحزب والدعاية له . ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن الدعوة الى تقويض سيطرة الرجل الأبيض والقضاء عليها فى خلال فترة محددة . وجدت استجابة قوية لدى المواطنين ، وفتحت امامهم الأمل ، نحو حياة كريمة افضل ، ونحو المزيد من الوظائف . كما مضينا فى دعوتنا فى الاسواق وبين الاكواخ ، واكتفينا فيها بمجرد الدعوة ، وتعريف

الناس بالحزب واهدافه ، ولم نسع الى أن يصبح جميعهم أعضاء فى الحزب .

وعندما قررنا عقد اجتماعنا الاول الكبير ، وجعل العضوية فى الحزب مفتوحة أمام الجميع ، أدركنا ساعتها اننـــا بدأنا نجنى محصولا قيما .

كان القطاع ، أو « الدرك » كما كان يحلو لى أن أسميه ، الذى أشرف عليه يحتوى على أربعين مدينة وقرية . وكان مركز قيادتى فى « لوكو » وكثيرا ما كنت أشارك مواطنى فى تلك القرى حفلات رقصهم الوطنى .

وانى لأتساءل : ما هى المتعة التى نجدها فى رقصاتنا ؟ فى اعتقادى أنها ـ الى جانب كونها نوعا من الفن ـ هى وسيلة لترك النفس ، أو بعض النفس ، على سجيتها ، فترة من الزمن .

وانى لأتساءل أيضا : أهى عمل يتفق مع الاخلاق أو يجافيها؟ .. على أن ذلك كله لا يعنينى فى شىء ، ولكن الذى يعنينى هو أننى خلال تلك المرحلة ، استطعت أن أكتشف نفسى من جديد ، وأعيد اليها « افريقيتى » التى أوشكت أن أفقدها خلال السنوات الأخيرة فى أوربا .

وكنا نحرص ، أنا وصامويل خلال الزيارات التى نقوم بها للقطاع أو « الدرك » الذى تشرف عليه المقابر ، على أن نتعرف على تاريخ هؤلاء الموتى . وكان صامويل لايترك هذه الفرصة دون أن ينتهزها ، فاذا قمنا من مجلس من مجالس « ساجرسا » كان صامويل يحظى بكثير من المودة والمحبة .. وهو يرى الكثير عن تاريخ هؤلاء الموتى .

* * *

وفى تلك الأيام ، أيقنت أنه قد آن الأوان لأستقيل من وظيفتى ، لاستحالة التوفيق بين عملى وبين النشاط الذى يستلزمه جهدى فى الحزب ، ووجدت أنه يجب أن يتجه نشاطى بأجمعه للتحدث الى الأعضاء الذين انضموا الى الحزب ، ثم أوشك ايمـانهم ان يهتز ،

وقررنا تخفيف القيود المفروضة على عضوية الحــزب ، وان يسمح بدخول المخطئين الى عضوية الحزب مرة اخرى ، بعد انقضاء عام على طردهم منه .

وحتى تلك اللحظة ، كان حزبنا مجرد منظمة خاصة ، وعندما وصل عدد أعضائه الى عشرين الف عضو أصـبحنا على ثقة بان الاجتماع الكبير الذى قررنا عقده فى يوم الاحتفال بانشاء الحزب ، سوف ينجح نجاحا باهرا . وادركنا أنه قد آن الاوان ليـكون للحزب فروعه . ولم نهتم كثيرا بالاعلان عن الحزب فى الصحف ، لأن عزمنا على عقد الاجتماع الكبير ، جذب الينا مندوبى الصحف الذين سعوا لعقد الاحاديث الصحفية معنا .

ويجب أن اذكر هنا انه لم يكن هناك منافس لنا من الأحــزاب ما يمكن أن يطلق عليه اسم الحزب السياسى بالمعنى الصحيح ، اللهم الا حزبين اقليميين تركز اهتمامهما على المصالح الاقليميـــة وحدها . ولم يكن ثمة أمل فى أن يقدر لهما النجاح فى البـــلاد ولا يمكنهما العيش معا الى جانب حزبنا الذى أعلنا انه يمثل مصـــالح سونجهاى بأكملها

والواقع ان ما قمنا بعمله كان شيئا جديدا بالنســبة لبلادنا ، وعندما أتطلع الى تلك الايام الآن ، يتراءى لى أننا كنا نصنع العجائب لمجرد تفكيرنا بمثل ذلك العمل

***

كان يوم الاجتماع تجربة يستحيل ان انساها أبدا ، وكنا قد أرسلنا الى جميع الأعضاء ندعوهم الى الحضور الا اذا حال المرض بينهم وبين ذلك . وقلنا فى دعوتنا اننا نعلق أهمية كبرى على ضرورة تلبية دعوة الحضور هذه المرة . لأن الاجتماع الأول ، له أهميتـه الكبرى فى تدعيم كيان الحزب وفى ضمان نجاحه مستقبلا .

وقـــررنا ان يكون الاجتمــاع فى « ساجرسا » على الرغم من النفقات الباهظة . واخترنا لذلك الاســتاد الرياضى الذى يقع فى مشارف المدينة . ليكون مكان الميلاد الرسمى للحزب ، الذى سعينا

الى تهيئة الامكنة اللازمة لراحة الآلاف الذين أرسلت اليهم الدعوة للحضور .

وثمة أمور أخرى كان يجب تسويتها قبل الاجتماع الكبير ، منها المقترحات التى ستقدم فى ذلك الاجتماع .. كرمز الحزب وشعاره والاسم الذى سيطلق عليه

وفى لحظات قصار انتهى رأينا جميعا ، نحن الأعضاء المؤسسين ، الى الاتفاق التام الكامل حول هذه النقاط جميعا .

فاتفق الرأى على أن يطلق على الحزب اسم « حزب الوحدة والتحرير » واتفق الرأى أيضا على أن يكون رمز الحزب ، ماسة تحيط بها هذه العبارة « وجوه كثيرة .. ولكن الهدف واحد » وكان هذا الرمز الاخير من بنات أفكار صامويل .

وظل الشعار الرسمى للحزب ، كما كان من قبل وهو « الوحدة الآن .. ثم الحكومة الذاتية فى خلال خمس سنوات » .

* * *

وأمضينا ذلك اليوم فى عمل دائب لم ينقطع . وبدأت الوفود تتدفق على مكان الاجتماع ، ووجدنا اننا احسنا صنعا عندما استأجرنا استاد المدينة لنتخذه مكانا للاجتماع . من أجل هؤلاء الاعضاء الذين وفدوا الى المدينة التى لا أقارب لهم فيهاولاأصدقاء والذى يصلح « الاستاد » لايوائهم .

وقررنا أن يستمر انعقاد الاجتماع ، جلستين متعاقبتين ، الجلسة الاولى فى مساء السبت ، والجلسة الثانية فى مساء الاحد الذى يليه . واخترنا لذلك أمسيتين تمنينا أن تكونا غير ممطرتين وأخذنا ، نحن العشرة من « الحواريين » — كما كنا نطلق ذلك على أنفسنا — نقدم أنفسنا الى المجتمعين الذين لم يتعرف الينا معظمهم . اللهم الا عن طريق الصور الفوتوغرافية التى كانت تظهر فى الصحف .

وأدركت مدى ما أفدناه من اجادة كل منا لغتين على الاقل من لغة البلاد المحلية . فقد أفادنا ذلك كثيرا خلال اجتماعاتنا بأعضاء الوفود .

وأدهشنا جميعا تلك البلاغة التى كنا نتحدث بها الى النـاس ومدى فاعليتها .

وقد يكون مرجع ذلك الى تدريباتنا السابقة التى كنا نمارسها فيما بيننا استعدادا لذلك اليوم المشهود ، ولكن الحقيقة ، ان تلك البلاغة وافتنا لأنها جاءت وليدة ذلك الاخلاص العميق للهدف الذى كنا نسعى اليه ، وهو الهدف الذى ربط بين قلوبنا جميعا .

* * *

وأخذ صامويل يتحدث الى الحاضرين ، فتحدث عن الثروات المعدنية التى أخذ المستعمرون فى نهبها طوال تلك السنين . وكيف ان تلالا من الأرض أخـذ المستعمر يحركها الى النهر .. ثم تحملهـا السفن الى أوربا . وقال اننا قـد وقفنا هكذا ننظر دون أن نلقى بالا لما يحدث ، فمعنى ذلك ان آلاف التلال ستزول من البلاد .. وتساءل لماذا لا نقوم بأنفسنا باستغلال ثروات بلادنا ونتولى بيعها بأنفسنا فى مقابل الملايين من الجنيهات ؟

وتعالت أصوات المجتمعين تدوى بالموافقة على هذا الذى ابداه صامويل

صحيح اننا كنا ندرك بأن الأمر لن يكون بتلك السهولة ، ولكن واجبنا كان يقضى علينا بأن نعمل جميعا على أن يدرك الناس هذه الحقائق ، وأن يكونوا على علم بها للوقت المناسب .

وتدفقت علينا التبرعات ، خلال تلك الاجتماعات والذى اذكره انه فى الاجتماع الثانى ، وهو الاجتماع الذى كان قاصرا على الأعضاء وحدهم . وقف صامويل ، وفى يده قطعة من الماس من التى تبرع بمثلها المواطنون ، وقال : لقد حدث يوما ما ان عثر على قطعة من الماس تزيد فى حجمهـا مرات ومرات عن هذه القطعـة ، وبيعت القطعة بآلاف الجنيهات ، وهذه القطعة ثبت أنها القطعة الرابعة فى حجمها فى العالم ... ثم أين ذهبت تلك الآلاف من الجنيهات .. قيمة تلك الماسة ؟ . لقد ذهبت الى جيوب الرجل الأبيض . وكان

من الواجب أن تبقى فى البلاد ، لتساعد على بناء كلية جديدة على غرار هذه الكلية التى ترونها . وكان يجب أن تظل تلك النقـود فى بلادنا ، لنبنى بها المدارس ونشق الطرق ونقيم الجسور .

وانى أتساءل .. ولكن كيف استطاع هؤلاء البيض أن يسرقوا ثرواتنا ؟! وهناك جواب واحد على هذا السؤال ..وهو أنهم تمكنوا من سرقة ثروات بلادنا ، لأننا شعب منقسم على نفسه . واذا استمر انقسامنا على هذه الصورة . فسنظل أبدا عاجزين عن ادارة شئوننا والتحكم فى ثرواتنا .. وسنظل نهبا للصوص والمستغلين .

ان ثروتنا ، وسعادتنا ورفاهيتنا فى هـذه القطع من الماس ، وليكن شعارنا جميعا ، تلك الوجوه المختلفـة ، التى تتطلع الى ذلك الماس ، والتى يجمعها هدف واحد .. هذه هى الرسالة التى تحملها الينا قطع الماس ، انها تدعو أصحاب الوجوه المختلفة الى الاتحاد ، والى وحدة الفرض والهدف .. هل هناك من يفكر فى شعار غـير هذا الشعار الذى اقترحناه ؟

ودوى المكان بكلمة لا ... والحق ان ما نطق به المجتمعون كان صوابا . فما أحوجنا الى الوحـدة على اختلاف وجوهنـا ، وهو النداء الذى كأنما كانت قطع الماس نفسها توجهه الينا أجمعين .وهى تشير الى السـعادة والرفاهيـة التى تكمن فى جنباتها ، والتى تدعو الى تحقيقها ، والبحث عنها ، والاستمتاع بها ، دون اللصوص والنهابين .

واخذ « صامويل » فى حماسة عارمة يلوح بقطع المـاس ، غير عابىء بنظرات رجال البوليس الذين وقف رئيسهم فى عربته ، داخل الاستاد يراقب الاجتماع . عسى أن تتاح له فرصة الحصول على ترقية جديدة ..

وانهى صامويل خطابه بأن أعلن أن الساعة تشير الى السادسة مساء . وان مدة الخمس سنوات التى قررها الحزب لحصول البلاد على الحكم الذاتى . تبدأ من تلك الساعة .

وتطلعت الى وجوه الحاضرين . ولمحت من بينهم وجه زوجتى وقد ظهرت عليه علائم الغبطة والارتياح

وعلى بعد أميال من مكان الاجتماع . كانت حجرة المخابرات فى ادارة البوليس قد امتلأت عن آخرها . وهى تستمع الى التقارير التى تصلها عن طريق اللاسلكى من السيارة التى كانت تقف خارج مكان الاجتماع .

ويبدو أن المجتمعين فى تلك الحجرة كانوا يتساءلون فيما بينهم؟ هل يتوجهون لفض الاجتماع ؟ ويتعرضون لغضب الجماهير هناك ؟

يبدو ان الأوامر قد صدرت اليهم بأن يبقوا فى أماكنهم على زعم ان شيئا ما لم يحدث ، وانه لم يكن هناك اجتماع . ولم تكن هناك خطب نارية وقرارات تاريخية

ولكن .. كيف يستطيعون ذلك ، وستصدر الصحف فى اليوم التالى ، وستفيض صفحاتها بأنباء ذلك الاجتماع وصوره . وما حدث فيه من مخالفات للقانون ؟!

- ١٠ -

وبدأ رجال البوليس فى توجيه ضرباتهم ، ففى اليوم التالى بدأت قوافل سيارات اللورى تتدفق من « ساجرسا » بما تحمله من المندوبين العائدين الى مدنهم وقراهم ..كان صامويل فى طريقه الى قريتى « لوكو » التماسا للراحة بعض الوقت . وفوجئنا عند وصولنا الى حدود « ساجرسا » برجال البوليس يأمروننا بالتوقف

ويبدو أن الاوامر التى صدرت الى رجال البوليس . هى تجنب الاحتكاك بالجماهير ، والتحايل لالقاء القبض على « صامويل » بأن يتم هذا الاجراء ، فى الوقت الذى يكون فيه صامويل وحيدا ، وبعد أن تنفض عنه مواكب الجماهير التى بدأت فى مغادرة العاصمة الى قراها ومدنها .

وعند حدود « ساجرسا » كانت قوافل الجماهير لا تزال تمر من هناك ، ورأى ضابط البوليس المكلف بالقبض على « صامويل » أنه لاقبل له بمقاومة غضب الجماهير وحماستهم ، اذا حاول اتمام مهمته فى تلك اللحظة فسمح لنا بالانصراف .

وعند اقترابنا من ضواحي « لوكو » لحقنا هناك ضابط البوليس على راس قوة من رجاله وقال : انه يحمل أمرا بالقاء القبض على « صامويل » بتهمة حيازة قطعة من الماس ، بطريقة غير قانونية !!

لم يكن هناك فى السيارة ، سواى وصامويل وزوجتى ، وبينما كان رجل البوليس يتلو أمر القبض على « صامويل » حدثت مفاجأة اخرى ..

كانت زوجتى « فاطماتا » يغلب عليها طابع الهدوء . وكان من الصعب اثارتها ، ولم أسمع قط أنها غضبت أو أفلتت أعصابها . وكان يبدو فى طباعها ، الفتور وعدم الاهتمام .

ولكن المفاجأة التى حدثت وأدهشتنى ذلك اليوم .. هو انه فى الوقت الذى كان فيه ضابط البوليس يتلو ما جاء فى أمر القبض على « صامويل » اندفعت « فاطماتا » بكل قوتها نحو ذلك الضابط وأمسكت فجأة بخناقه وأخذت تصب الشتائم واللعنات على الضباط .

ثم كانت المفاجأة الاخرى .. فبعد أن تمكننا من فض المعركة ، وتهدئة « فاطماتا » وجه الضابط اليها تهمة مهاجمة رجال البوليس واقتيد « صامويل » و « فاطماتا » الى مركز البوليس . ولم يبدر منى وقتها أى نقاش أو كلام . ظنا منى بأنه سيتم الافراج عنهما فورا تلك الليلة .

ومضيت الى منزلى ، فى لجة من الافكار المتضاربة ، اذ خيل لى أن هذا الحادث هو أول نكسة تصاب بها حركتنا ، واقترح البعض أن نعمل على اجبار المسئولين بأن يطلقوا سراح « فاطماتا » و « صامويل » فوراً .

انتشرت أنباء القبض على « صامويل » و « فاطماتا » هنا وهناك فى مدن سونجهاى وقراها ، وهى الانباء التى خلفت وراءها مزيدا من كراهية الشعب للمستعمرين . وهى الكراهية التى اعتبرتها كسبا جديدا لنا ضد هؤلاء الذين عملوا على اعتقال « فاطماتا » و « صامويل » .

وكان من رأيى على الدوام الا ألجأ الى العنف وكنت أعلم مدى قوات الاستعمار الموجـودة فى « سونجهاى » ومدى الاضرار التى يتعرض لها المواطنون اذا حاولوا تحدى هذه القـوات . وكان من رأيى أن الالتجاء الى العنف وتحدى السلطات فى تلك الظروف، يعنى أن يرتد سيف القاتل الى قلبه .

***

توجهت فى صباح اليوم التالى الى مركز البوليس ، ووجـدت أن « صامويل » قد أعيد الى « ساجرسا » لمحاكمته هناك فى « مقر الحادث » . وأن « فاطماتا » ستقدم الى المحاكمة فى اليوم التالى .

كان واضحا أن قوات البوليس لا تزال فى حالة اسـتعداد للطوارىء ، انتظارا لما تسفر عنه التطورات الناشئة عن حادث القاء القبض على زوجتى وصامويل . وكان من الواضح أن قـرار اعادة « صامويل » الى « ساجرسا » جاء نتيجة لتقدير السلطات المسئولة بأن « ساجرسا » أكثر الاماكن اطمئنانا لحجز زعيم الحركة الجديدة فيها . بدلا من حجزه فى « لوكو » وما يؤدى هـذا الحجز فى تلك القرية ، من أخطار يتعرض لهـا رجال البوليس ، نتيجـة لغضب الشعب ، وتحرشه بقوات البوليس على قلة عددهم هناك .

وكان من الواضح أن قضية « فاطماتا » ستنتهى سريعـا بأن يحكم عليها بالغرامة .. قبل أن تخرج أنباء حجزها ومحاكمتها من قرية « لوكو » وتنتشر سريعا فى أنحاء « سونجهاى » .

وسمح لى الضابط الذى اشتبك مع زوجتى بأن أزورها أنا و « كاى كاى » المحامى واحد العشرة « الحواريين » من مؤسسى الحزب وذلك قبل محاكمتها فى الصباح التالى .

وأبلغت المسئولين بأن « كاى كاى » سيتولى مهمة الدفاع عن زوجتى . والواقع أن غاية ماكنت أسعى اليه أن يكتفى «كاى كاى» بتقـديم النصيحة الى « فاطماتا » فقد كنت أرغب فى ألا تطـول المحاكمة ، وكنت ارغب فى أن يتم كل شىء وفقا لرغبـات البوليس وهى أن تتم المحاكمة على وجه السرعة .

ودخلت أنا و « كاى كاى » حجرة اعتقال « فاطمـاتا » حيث واجهتنى هناك سلسلة من المفاجآت لم تدر فى حسبانى أبدا .

أدركت لدهشتى أن « فاطمـاتا » كانت على علم كاف بمدى ما تستفيده سياسيا من حادث القاء القبض عليها هى وصامويل

وفاجأنى تصميمها على ألا يظل حادث القـاء القبض عليهـا محصورا فى نطاق القرية وألا ينتهى هكذا بسلام ، بل أعلنت تصميمها على أن يستغل الحادث على أبعد حد .

وفاجأنى أن ترفع « فاطماتا » راية العصيان فى وجهى لأول مرة فى تصميم وعزم أكيدين ..

* * *

كان الوعد الوحيد الذى حصلنا عليه من « فاطماتا » هو انهـا لن تهاجم أحدا من رجال البوليس . اما أن تعترف بأنها مذنبة ، وهو ماحاولنا حملها على الوعد به ، فقد أعلنت أنها لن تفعل ذلك أبدا ، وهددت بأنه اذا حاول البعض حملها على الاعتراف بأنهـا مدينة فى الجلسـة . فانها ستكون حرة فى ابداء مشـاعرها نحو الاستعمار والمستعمرين ، علانية فى الجلسة .

وكان معنى اعترافها أمام المحكمة بأنها مدينة ، يتضمن اقرارها بأنها هاجمتـه . وهو ما اعترفت به فى التحقيق ، ويتضمن أيضـا اقرارها بأنها ارتكبت جرما ، وهو ماأصرت على انكاره والتسليم به بتاتا . وكان هدفنا من حملها على الادلاء بهذا الاعتراف . هو أن تنتهى المحاكمة سريعا وبلا تعقيد .

وأمضيت خمس عشرة دقيقة وأنا أتوجه اليها بالرجاء لأول مرة فى حياتنا الزوجية . ولكنها أصرت على موقفها اصرارا عجيبا . وبدلا من الانصياع لأمرى ، حولت مجرى الحديث ، وطلبت منى ، كمـا لو كانت أمضت فى السجن مدة طويلة ، ان أسعى فى اتمام زواجى الثانى ، حتى أجد من يرعانى فى غيابهـا .. وطلبت منى ان تأتى « كانيدا » زوجتى الثانية المقترحة ، لزيارتها فى السجن بعد أن يتم زواجنا ، لابلاغها التعليمات الكاملة لادارة المنزل !.

وبدا لى أن « فاطماتا » صممت على أن تكون واحدة من هؤلاء الشهيدات فى سبيل الوطن . ولم أشأ اعتراضها ، فقد بدا لى أيضا أنها أصبحت تؤمن ايمانا عميقا ، بأنها تريد أن يستفيد الحزب من تضحياتها .

وبعد ساعات من اجتماعنا بها ، عقدت الجلسة لمحاكمتها ، وأدهشتنا « فاطماتا » مرة أخرى ، فقد وقفت أمام القاضى لتلقى فى وجهه سيلا من اللعنات على الاستعمار والاستعماريين . وهى اللعنات التى أهاجت المترجم نفسه وهو يتلو بعض فقراتها ، وأضيفت الى قائمة الاتهام تهمة أخرى ، هى تهمة احتقار المحكمة. وانتهت المحاكمة بالحكم على « فاطماتا » بالسجن لمدة ستة أشهر !.

وكان رد الفعل الناشىء عن تلك الميلودراما . هو نفس ماكانت تحلم به الممثلة الاولى فيها ، فقد امتلأت صفحات الصحف بصورة وقصص « فاطماتا » ضحية عملاء الاستعمار . وانتشرت أنباء قصتها فى أنحاء « سونجهاى » وأخذ دق الطبول ينتقل من قرية الى أخرى دون الحاجة الى الصحف والنشرات ، معلنا حادث « فاطماتا » بين القبائل المختلفة هنا وهناك .

ولست أشك فى أن قرى سونجهاى كلها قد استمعت الى قصة السيدة الافريقية التى لم تكتفى بمهاجمة رجال البوليس . بل أهانت القاضى الابيض ، فى نفس الجلسة التى عقدها لمحاكمتها .

* * *

وأعلن « صامويل » من جهته فى الجلسة التى عقدت لمحاكمته أنه غير مذنب . وبعث الى برسالة جاء فيها : أنه قرر استغلال حادث القاء القبض عليه ليفيد الحزب من ذلك .

وقد ثبت أن قطعة الماس التى وجدت مع « صامويل » كانت فى حورة احدى شركات التعدين الاجنبية . وعلى ذلك فقد قرر

صامويل بالاتفاق مع المحامى « كاى كاى » أن يثيرا فى المحكمة مدى شرعية القوانين التى تبيح للشركات الاجنبية احتكار استغلال المناجم والحصول على ثرواتها ، وهى الثروات التى لا يجوز ، طبقا لقوانين البلاد وعاداتها ، أن تنقل الى الخارج .

وتناولت الصحف الحادث ، من وجهات نظر مختلفة ، فمنها من وصف الحادث على أنه محاولة يائسة ، وان أبطالها يضربون رءوسهم عبثا فى حائط الاستعمار الصلد ، وقالت بعض الصحف أن « صامويل » و « فاطماتا » من الأبطال الذين يكافحون من أجل قضية ، ان قدر لها النجاح ، فستكون النتيجة أن يتغير النظام الاقتصادى فى البلاد .

والواقع ان تعليقات الصحف ، على هذه الصور المختلفة ، جعلتنى أعتقد بأن الحزب فى حاجة الى صحيفة خاصة به تعبر عن رأيه .

وانتهت محاكمة « صامويل » بالحكم عليه بالسجن لمدة عامين ، أعقبها بكاء الحاضرين فى الجلسة والضجة الهائلة التى أعقبت نطق القاضى بالحكم .

وكان الجدال القانونى الذى دار فى الجلسة ، وتولى اثارته « كاى كاى » و « كونادى » المحاميان وعضوا العشرة «الحواريين» المؤسسين للحزب . حول هل يطبق القانون المحلى لسونجهاى الذى يحرم نقل ثرواتها الى الخارج ، أو يطبق القانون المستورد الذى يبيح الاستغلال ؟

وانتهى الجدل القانونى بأن طبق القاضى الانجليزى القانون المستورد ، ضاربا صفحا بقوانين البلاد المحلية وعاداتها المقدسة الموروثة .

* * *

وكانت مدة السجن التى أمضاها صامويل .. فترة من النشاط الدائب نتيجة للنمو المتزايد فى كيان الحزب ونشاطه .

وزار صامويل فى سجنه كثير من الزوار .

وانتخب صامويل ، وهو فى سجنه ، ووسط مظاهر الحماسة. رئيسا لفرع الحزب فى ساجرسا .. وأنتخبت أنا لرياسة الفرع فى قريتى « لوكو » وانتخب الثمانية الآخرون من مؤسسى الحزب .. كل على رأس فرع الحزب فى موطنه

* * *

وبدأت فى اعداد مسودة النظام المقترح للحزب فى البلاد لعرضه على مؤتمر الحزب عند انعقاده مستعينا فى ذلك بالنظم التى أطلعت عليها ، والتى تسير عليها الاحزاب الأوربية والدول الافريقية .

ويتم بنيان الحزب ويكتمل كيانه بعد انتخاب أول رئيس له منذ تأسيسه وهو المنصب الذى شرفنى به زملائى بأغلبية الاصوات والذى كنت أعتقد أن « صامويل » هو الذى سيحظى به .

وفى نفس الجلسة التى تم فيها انتخابى قدم لى « كاى كاى » رسالة كان صامويل قد أرسلها اليه . وطلب منه أن يسلمها لى اذا وقع الاختيار علي كأول رئيس للحزب . وفى تلك الرسالة سكب صامويل خالص تهانيه لى ، فى كأس صافية من الاخلاص والود والولاء .

- ١١ -

ربما كانت زوجتى الجديدة « كانيدا » تقل عنى سنا بنحو خمسة عشر عاما . وربما كان لها أن تزهو على « فاطماتا » بأنها أتمت تعليمها الأولى . هذا الى جانب ذوقها السليم فى اختيار ملابسها وعنايتها بزينتها .

ولم أنقطع عن زيارة « فاطماتا » فترافقنى «كانيدا» ، وذلك خلال الاشهر الاولى من زواجنا .

كانت مظاهر السعادة تبدو على « فاطماتا » التى كانت أيضا خلال زيارتنا لها تبدى أشد الاهتمام حول الطريقة التى تدير بها « كانيدا » شئون المنزل . وكان ذلك الاهتمام يبين مدى اشفاقها

وعنايتها بى أكثر من اهتمامها براحتها وهى فى سجنها . ولم تنس « فاطماتا » ــ وهى فى سجنها ــ أن تحث « كانيدا » على أن تمنحنى ولدا ، ولا تدخر وسعا فى هذا السبيل . وقـد أدركت ــ خـلال زيارتى لفاطماتا ــ مدى احساسها العميق بعجزها حتى تلك اللحظة من أن تمنحنى ولدا . ولا شك انها لمحت فى « كانيدا » قرب توفيقها بأن زوجها لن يظل هكذا بدون وريث . فان المنزل الذى لا يعج بالاطفال . هو بلا شك منزل تسوده الأحزان .

* * *

وتزداد الشئون الخاصة بالحزب يوما بعد يوم ، فالانتخابات العامة مثلا ستجرى فى نهاية هذا العام . وأخذت جهود الحزب تتجه الى كسب المعركة ، وبالتالى الى تقلد الحكم فى البلاد .. وقررنا ألا نترك للحظ تقرير مصيرنا .

لقد كنا على ثقة من الفوز . وتمت عملية الترشيح للانتخابات بدقة وطبقا لتخطيط دقيق .

وبدأنا المعركة فى الاسبوع الذى أعقب انتخابى رئيسا للحزب ، وعلى الرغم من السلطة المباشرة التى منحت لفروع الحـزب فى اختيار المرشحين . وفى تقدير التفاصيل التكتيكية للمعركة ، فقد زادت الأعباء على مقر قيـادة الحزب ، اما لطلب المشـورة أو المساعدات المـالية . وفى وسط هذا كله . فقد كان علينا أن نعد البيان الذى سيصدره الحزب للدخول فى المعركة .

* * *

ولقد حرصنا على أن يكون بيـان الحزب حافلا بالحقـائق والمطالب العملية . وقررنا أن يظل الحزب عند بيـانه الصادر فى يوم تأسيسه وهو أن نمنح البلاد الحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات من تاريخ تأسيس الحزب . وحرصنا أيضا على أنه ليس من الضرورى ألا يتضمن البيـان وعودا وأنواعا من الاسراف فى الوعود فى سبيل الحصول على مزيد من التأييد .

ومن القرارات التى أصدرها الحزب فى مؤتمره الاول .. أن يمنح رئيسه مرتبا من أموال الحزب . وأن يكون ذلك المرتب مساويا لآخر وظيفة كان يشغلها ذلك الرئيس قبل اختياره للرياسة ، وطبقا لذلك القرار أصبح مرتبى فى الحزب لا يقل عن الف جنيه فى العام الواحد . ولم يكن هناك ما أشكو منه من متاعب مالية .

ونتيجة لتعيين سكرتير للحزب لمساعدتى فقد وجدت أنه يجب أن يقتصر نشاطى على المشاكل الرئيسية الخاصة بالتخطيط السياسى .

وقررت أيضا أن ألتمس الراحة والهدوء بالسفر الى منزل والدى قبل أن تبدأ معركة الانتخابات . يدفعنى الى ذلك عاملان أولهما : أننى بدأت أشعر برد الفعل الشديد الناشىء عن انهماكى فى الاعمال ، وثانيهما : حاجتى الى الوقت الذى يتيح لى فرصة التفكير فى جو هادىء بعيد عن المضايقات .

* * *

وثمة باعث آخر أعتقد أنه من البواعث التى دفعتنى الى السفر الى حيث يقيم والدى وهو ابلاغهما بما اعتزمت أن أسير عليه فى مستقبل حياتى ، والتماس النصيحة منهما من أجل ذلك المستقبل .

وقبل سفرى سألنى الصحفيون عن المكان الذى سأسافر اليه . فكان جوابى : اننى سأسافر الى جهة مجهولة .

والحق أننى لم أستهدف من تصريحاتى هذه أن تحاط تنقلاتى بجو من الأسرار والاحاجى - ولو كان صامويل مطلق السراح لكان أول من يوافق على هذا - ولكننى كنت أستهدف أن يظل مكان سفرى مجهولا .. وأن أمضى بين أهلى فترة من الراحة والهدوء ..

* * *

وينتهز أعدائى هذه الفرصة فيروجون الاشاعات حول سفرى

ويزعم البعض أن أمي تحتفظ لي بقدر ممتلىء بمواد سحرية وأن ذلك القدر لا يرتفع أبدا عن النار . وأنه في حالة غليان دائب مستمر في انتظار حضوري ليزيدني قوة وشدة ! .

***

قلت لوالدي .. لقد قرر الحزب انتخابي رئيسا له في الاسبوع الماضي ، ان زعماء الحزب يمثلون مختلف الطبقات في البلاد . وبعد البحث والتفكير قرر هؤلاء الزعماء أن أكون زعيما وقائدا لهم ، وسأتولى قيادتهم في معركة الانتخابات القادمة ، واذا قدر لنا النجاح - والله يعلم ذلك - فسيكون لنا أن نتولى قيادة الحكم في البلاد ..

قال والدي : ان الله سبحانه وتعالى جعلني أعتقد دائما بأنك ستؤدي الخير كله لبلادك ولعائلتك ونحو نفسك . وأعتقد بأن الله سبحانه وتعالى سيمكنك من ذلك .

وتطلعت الى والدتي . وأدركت فجأة مدى تقدمها في العمر ، وتطلعت الى والدي . تلك الصورة التي كانت تمثل القوة والعظمة وقد بدت على وجهه صور الأعوام الماضية من العمل المضني الكادح في الارض والنهر . وبدا لي أن الأيام الاخيرة في أعمار الرجال ، كالدقائق الاخيرة في اليوم ، تظهر آثارها سريعا في أفريقيا أسرع منها في أوربا . وبدا لي والدي ، وهو جالس على كرسيه ، أن عينيه الحادتين هما وحدهما اللتان تتمعتان بالحياة وتتحركان هنا وهناك .

***

وتطلعت الى والدتي . التي لا تزال تمارس تجارتها . والتي لا تزال تعلو شفتيها الابتسامة الهادئة الحزينة وتبدو عليها علائم الرضا والاطمئنان .

وتطلعت اليهما معا ، كأكبر راس في العائلة ، ووجدت فيهما انهما يمثلان بالنسبة لي أعلى وأحكم سلطة أعترف بها في الدنيا أمام الله .

وهكذا .. وفى هذا الجو العائلى الهادىء الهانىء ، أمضيت اسبوعا من حياتى . وقبل أن ينتهى ذلك الاسبوع تلقيت دعوة غريبة جاءتنى من قوميسير المنطقة المحلى يدعونى فيها الى زيارته .

* * *

كان جيم اندرسن قد بدت عليه علامات تقدم السن ، وبدا لى أنه يعيش فى غمرة من خيبة الأمل ، بعد ثلاثين عاما أمضاها فى الخدمة ، دون أن ينال ما يستحقه من ترقية .

حيانى أندرسن بحرارة ، وبدا لى أنه كان على الدوام يتتبع خطواتى فى الحياة . وبعد أن مضينا فى تبادل الأحاديث العادية ، عاد اندرسن فجأة موظفا فى خدمة صاحبة الجلالة البريطانية .. وقال : « يجب أن أهنئك بمناسبة اختيارك رئيسا للحزب يا سيد كامارا » .. فشكرته على هذه التهنئة ..

قال : لقــــد فهمت ان حزبك قد وعد بأن تنال البلاد الحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات ..

فكان جوابى أن سألته .. هل تعتقد بأننا تجــاوزنا مرحلة التفاؤل عند تقريرنا تلك المدة ؟

قال أندرسن : ان هذا الأمل الذى تدعو اليه بحماسة ، هو من جهة أخرى يثير الرعب فى نفسى .. لأنك تعلم أن أقواتى من خبز وزبد ، قد لا تتاح لى فرصة الحصول عليها ، اذا قدر لهذه البلاد أن تحظى بالحكم الذاتى ، قبل أن أعتزل الخدمة .

فأجبته على هذه الدعابة بمثلها : أنا لا أعتقد بأنه ليس هناك ما يدعو الى ازعاجك . اذا تم لنا الحصول على استقلالنا الذاتى . اذ لاشك اننا ســنكون فى حاجة الى أمثالك لمدة طويلة فى الوظائف التى تحتاج الى خبرة خاصة على الأقل ، ثم لا تنس أننا سنعوض هؤلاء الذين سنستغنى عن خدماتهم أو الذين يبــدون رغباتهم فى ترك الخدمة من تلقاء أنفسهم .

قال أندرسن : دعنى أكون صريحا معك .. اننى أعتقــد بأنك

تثير فى نفوس الناس آمالا كاذبة .. وفى اعتقادى انك اذا مضيت قدما نحو تحقيق هـذا الشعار الذى رفعه الحزب فى المدة التى قررها . فانه من الحق علينا أن نعيد النظر مرة أخرى خصوصا بعد انتخابك رئيسا للحزب .. ولنتساءل عما اذا كان من الحكمة أن تظل عند وعدك هذا ؟.

ولم أشأ أن أرد عليه فورا ، فقد كنت أحاول بينى وبين نفسى أن أقرر هل تراه يتحدث بناء على تعليمات تلقاها ؟.

قلت له : هل تسمح لى بأن أتوجه اليك بسؤال صريح ؟..
قال : تفضل ..
قلت : هل أفهم من حديثك انك تتحدث بوصفك القومسيير المحلى ؟ ..
قال : الحقيقة ان صاحب السعادة يبدى اهتماما بالغا بهـذا الموضوع ..
قلت : فى الواقع انه تبادر الى ذهنى فعلا ان المسألة كما تقول ثم أرجو أن أسأل .. هـل طلب منك سـعادته أن تبدى الى أية نصيحة .. ؟

قال : لا . ولـكن الحقيقة هى أن سعادته أصـبح على اعتقاد بأن تحديد مدة معينة لتحقيق الحكم الذاتى فيه من الأضرار أكثر مما فيه من الشرور .

قلت له : واسمح لى أيضا بأن أقول انه من دواعى سرورى أن أتقبل هذا الاطراء ، وأن يرى سعادته بأننى أستحق هذه النصيحة وأرجو ابلاغ سـعادة الحاكم بأن نصيحته سـتعرض على اللجنة التنفيذية للحزب .

قال : أرجو الا أكون قد تجاوزت حدى ، وبعدت عن التبصر اذا طلبت منك أن تستخدم نفوذك فى اللجنة لتؤكد لأعضائها على الأقل مدى الخطورة التى شرحتها لك .

وشكت المقابلة على الانتهاء ، وحاول أندرسن استبقائى مدة أخرى ، ولكننى اعتذرت وقلت له اننى أفضل تمضية الوقت مع

والذى لأمنحهما أكبر قدر مستطاع من وقتى وشكرته على حسن الضيافة وعلى ما أبداه لى من نصيحة .

قال أندرسن فى انتهاء المقابلة : أرجو الا تأسف يوما ما لأنك رفضت هذه النصيحة .

***

وجعلت اتحدث الى نفسى قائلا : لاشك أن هؤلاء الرجال على اقتناع تام بأنه مما يضر سونجهاى أن تمضى سريعا فى طريقها نحو تحقيق الحكم الذاتى ، ولا شك أنهما لا يدركان ان كانا يعملان من أجل مصالحهما الخاصة ، أو من أجل مصلحة البلاد التى يمثلانها ولكن الذى لا شك فيه انهما يجهلان ان الحرية أحلى من النظام ومن الرفاهية لأنهما لم يتذوقا طعم الاستعباد من قبل .

ولم اسمع بعد ذلك أية كلمة أو نصيحة من كائن من كان من ممثلى الحكومة الرسميين . وانتهيت الى الرأى بأنهم ادركوا اخيرا أنه لا جدوى من محاولة تحويلنا عن المضى قدما فى الطريق السياسى الذى نؤمن انه الطريق السليم القويم لتحقيق أهدافنا .

وصل الى علمى بعد ذلك أنباء المشاكل التىيعانيها فرعالحزب الذى تم تكوينه أخيرا بين عمال مناجم الماس فى المناطق البعيدة على الساحل ، وهى المشاكل الناشئة من صعوبة اختيار المرشحين ورؤساء اللجان ، وقررت نتيجة لخطورة الدور الذى ستقوم به نقابات العمال أن أقوم بزيارة تلك المنطقة فى وقت قريب ..

على أنه لم يكن فى مقدورى أن أقوم بزيارة تلك المنطقة فورا نتيجة للموعد الذى حددته لمقابلة وفد حزب « الاتحاد الوطنى للمستعمرات » . وهو الحزب الذى يتمتع بالسلطة فى «سونجهاى» ؛ وهو الحزب الذى يقوم على أساس توحيد جهود المستعمر .. نحو غرض واحد

والذى اعلمه عن ذلك الحزب انه اصبح من الاحزاب التى

تؤازر الإستعمار فى البلاد ، وانه أدرك أخيرا ، بعد تلك القوه التى وصل اليها حزبنا ، ان أيامه أصبحت معدودة ما لم يقم بعمل سريع

وبدأ مستر رايت ، المتحدث باسم الوفد ـ وهو فى الوقت نفسه من أعضاء مجلس النواب فى سونجهاى ـ حديثه فقال : انه يتحدث باسم المسئولين فى حزبه ، واقترح فى حديثه ادماج الحزبين معا قائلا : اننا نقاتل فى نفس الطريق ، ونقاتل أيضا ذلك الذى تسعون الى قتاله ، وكلنا نرغب تحقيق أفضل ما يمكن لهذه البلاد العزيزة علينا جميعا .. فكان جوابى عليه اننى لا أشك لحظة فيما يقول .

ثم قال : ثم ألا ترى معى انه سيكون فى وسعنا صيانة نشاطنا وطاقتنا لمواجهة العدو الحقيقى للبلاد بدلا من تبديد هذه الطاقات فى محاولة أن يمسك أحدنا بخناق أخيه؟.

قلت له : ان ذلك كله يعتمد أكثر مما يعتمد على اتفاقنا أو عدم اتفاقنا على تعريف معنى «العدو الحقيقى» للبلاد .

ويبدو انه فوجىء بسؤالى .. اذ اتسعت عيناه ، ثم عاد اليه هدوؤه ، وعاد يتحدث الي ويجيب على سؤالى فى نعومة وهدوء : ان الجواب على سؤالك واضح .. ان الجهل والمرض ، وذلك الدمار والتبذير الذى يلحق بمصادر الثروة والطاقة الذهنيه فى البلاد ، وسوء التغذية والفقر .. هذه هى العدو الحقيقى لسونجهاى .. كما أنها هى العدو الحقيقى لكل انسان .

ـ والاستعمار ؟ !.

كان ذلك جوابى عن سؤاله .

قال مستر رايت : آه . الاستعمار ..

وأجبته عن هذا : أجل . هل لك أن تقرر أيضا بأن الاستعمار هو العدو الآخر الذى يجب أن نقاتله ؟ ! .

***

بدأ مستر رايت يسترد أنفاسه من جديد ، ثم سكت وبدا كأنه يفكر ، وفجأة أشار الى بأن أتبعه الى «الفرانده» لنتحدث فى خلوة معتذرا لزملائه .

وبدا لى كأن مفعول الشراب هو الذى أفقد الرجل توازنه ، وأفلت لسانه ، وهو يتحدث الى ذلك الحديث « السرى » الذى طلب منى أن يظل سرا دفينا بيننا لا يعلم به زملاؤه ، أو ربما كان يهدف من وراء هذه الثقة التى تحدث بها الى ، أن يغرينى على أن أقبل فكرة ادماج الحزبين معا فى حزب واحد . وعلى كل حال فان الذى سمعته منه فى تلك الخلوة كان بمثابة مفاجأة شديدة هزتنى هـزا .. !

قال الرجل : اتفقت الحكومتان البريطانية وحكومة سونجهاى ـ صيانة لمصالحهما المشتركة ـ على أن تصبح «ساجرسا» ـ العاصمة ـ قاعدة بحرية للأسطول البريطانى . وقد جاء ذلك الاتفاق بعد حادث انفصال «سيمونز تاون» وضمها الى حكومة جنوب افريقيا .. وعلى ذلك فيجب التخلى عن أى أمل أو رجاء فى أن تحظى «سونجهاى» بالاستقلال .

وبدلا من ذلك ـ كما يقول مستر رايت ـ فقد أعدت الحكومتان مشروع العشر سنوات للتنمية ، وهو المشروع الذى ستساهم فيه الحكومة البريطانية بمبلغ كبير من المال ، وفى مقابل ذلك ، سيسمح للحكومة البريطانية بأن تنشىء قاعدة بحرية للأسطول البريطانى وقاعدتين جويتين ، على أن تقام هذه القواعد فوق أرض سونجهاى وعلى أن تستأجر هذه القواعد لمدة غير محددة ، والى أجل غير مسمى .. وعلى أن يتاح لشعب سونجهاى فرص الاشتراك فى الأعمال الادارية والتشريعية فى البلاد ، وعلى أن يكون واضحا ، بأن أى تقدم نحو استقلال البلاد يجب أن يتوقف .

ومضى مستر رايت فى حديثه قائلا :

ـ وعلى ذلك فأنت ترى ان فكرة السعى الى الاستقلال التى يرغب شعب سونجهاى فى تحقيقها ، تعنى صرخات فى الفضاء .. وان الحكومة البريطانية لن تمنحه أبدا ذلك الاستقلال ، كما اننى ـ باخلاص ـ أعتقد بأنه ليس من صالح أحد فى هذه البلاد أن يسعى لتغيير هـذا الوضع .. ثم يجب أن تفهم بأن حديثنا سرى للغاية وأنه يجىء من قلب مفعم بالاخلاص نحو هذه البلاد ..

لقد أذهلنى هذا الحديث ، أذهلتنى هذه المساومات التى تعقد بين الحكومتين ، وأدركت وقتها انه اذا تم عقد مثل تلك الاتفاقية فان الموظفين البريطانيين فى سونجهاى ، من الحاكم العام ، الى أصغر موظف منهم ، سيجدون من واجبهم أن يبقى الحزب السياسى الذى منح حكومة صاحبة الجلالة تلك الثروة التى لا تقدر فى الحكم ، ولا شك أن الحكومة تملك الكثير من الوسائل التى يمكن أن تؤثر بها فى نتائج الانتخابات المحلية والانتخابات العامة على السواء .

وعلى هذا الأساس ، فقد سعى مستر رايت ليعرض على فكرة ضم الحزبين فى حزب واحد ، بعد أن أدرك هو وزملاؤه مدى الأخطار التى سيتعرض لها حزبه ازاء تلك القوة المتزايدة التى بدأ حزبنا يكتسبها كل يوم ، وكانت غايته أن يتم الاندماج ، وأن نتخلى عن مطالبنا ، وأن تتاح لنا فرصة الاشتراك معهم فى الحصول على الوظائف السياسية .

وظل رايت فى مكانه ينتظر جوابى ، ثم قال :

ـ ليس ثمة ما يدعوك لأن تجيب على اقتراحى بالرفض أو القبول .. وليس هناك ما يمنع من أن تبحث الموضوع مع زملائك فى الحزب .. وأخيرا ، يبدو لى أننى أصبحت فى حاجة الى ان أغفو برهة .. والذى أرجوه أن يصلنى ردك غدا .

وانتهت الزيارة ، واستقل بعدها « رايت » وزملاؤه السيارة فى طريقهم الى الفندق .

وفى اليوم التالى ، ابلغت «رايت» انه لا يمكننى حتى مجرد التفكير فى عرض هذه الفكرة على زملائى .

***

وجاء موعد زيارتى لمنطقة مناجم الماس لتسوية الخلافات الناشبة بين أعضاء فرع الحزب من العمال هناك ، وتوجهت الى «ساجرسا» أولا بطريق السيارات لزيارة «صامويل» فى سجنه ومنها على ظهر لنش بحرى الى منطقة المناجم حيث انتهيت من

تسوية الخلافات بين أعضاء فرع الحزب من العمال هناك . ورأيت أن أزور احدى الجزر النائية ، قبل عودتى الى « لوكو » ، وبعد انتهاء الزيارة ، مضى بنا « اللنش » الى لوكو .

سبقنى زملائى فى طريق عودتهم ، نقلتهم مجموعة اللنشات التى كانت تضم أفراد الحزب بعد تسوية الخلافات الناشبة بين العمال من أفراد الحزب فى منطقة المناجم .

وبقيت وحدى فى « اللنش » لانجاز بعض الأعمال ، يرافقنى « كواكى » سائق سيارتى الخاص الذى كان قد مضى على عمله معى فى ذلك الحين ستة أسابيع .

لم يكن « كواكى » موضع شكى وارتيابى أبدا ، وقد حدث فى مساء تلك الليلة ، وفى الوقت الذى كان فيه « اللنش » يقطع البحر فى طريقه الى « لوكو » ، وبينما كنت أحاول قراءة احدى الصحف حدث أن توقف « موتور » اللنش فجأة .

ناديت على « كواكى » وسألته : ما الخبر ؟ .

فقال : ان الآلات توقفت عن العمل ..

فطلبت منه أن يسرع فى اصلاحها ، فأجابنى بلغته الانجليزية الركيكة ، وبصوت بدت فيه نغمة غريبة : انهم قد فقدوا الأمل فى اصلاحها .

وأخذت الأمواج تتقاذف اللنش والأمطار تنصب عليه مدرارا .. وساورتنى المخاوف ، من الصخور والتماسيح والموت غرقا .

وتطرق الى سمعى أصوات الأحاديث التى كانت تدور بين السائق « كواكى » وبين عمال اللنش ، وعاد الى « كواكى » وعلى وجهه علائم الكآبة وحاول حملى على ترك غرفتى والبحث بنفسى عن أجهزة اصلاح اللنش .

تبادر الى ذهنى لأول مرة أن « كواكى » هو وزملاؤه يحاولون

ابتزاز اموالى .. فقلت له أن يبلـغ زملاءه بأننى أعدهم بمكافأة مجزية اذا تمكنوا من توصيلى الى الشاطىء فى خلال نصف ساعة.

وأجابنى بأن ذلك لن يكون ، ثم كشف القناع عن نفسه أخيرا.

قال « كواكى » : ان مستر رايت هو بمثابة الأخ لى .. واذا وعدت بأنك ستساعده وتوافق على رأيه ، فسنعمل على انقاذك .

اذن فهذه هى الخيانة ! واذن فقد قرر مستر رايت هو وزملاؤه اجبارى على الخيانة ، واتخذوا من هذا السائق ومن ملاحى اللنش أدوات قذرة لبلوغ أهدافهم .

وذكرت « لكواكى » مدى ثقتى به ، وهى الثقة التى حدت بى الى ان أختاره للعمل معى . وقلت له ان حياتى – بوصفه سـائق سيارتى الخاص – كانت رهن يديه كل يوم وانه لم يفكر قط فى خيانتى أو الغدر بى ، وسألته ، ما الذى دهاه حتى أن يلجأ الى هذه اللعبة القذرة وأنا الذى منحته ثقتى ؟.

فلم يجب ..

وطلب منى « كواكى » التوقيع على ورقة كان يحملها وسألته عن نوع تلك الوثيقة ، فقال انه لا يعرف القراءة وانه اذن لا يعرف محتوياتها ، فطلبت منه أن يسمح لى بقراءتها ، ولـكنه أجاب بأن الرجل الذى كتب الوثيقة ، اشترط أن أوقع عليها دون أن أقرأها.

وتبادر الى ذهنى انه تعهـد كتبه رايت يتضمن قبولى ادماج حزبه بالحزب الذى أنا رئيسه ، وقلت فى نفسى انه لا يضيرنى أن أوقع عليه الآن . ثم أعلن بعـد ذلك اننى وقعت عليه تحت تأثير الاكراه .. ثم دار بذهنى بعد ذلك انها وثيقة من طابع آخر .

وبدا لى أن التعليمات الصادرة الى «كواكى» هى ان يسـعى للحصول منى على وعد شفوى بأن أعمل على ضم حزب رايت الى حـزبى ، ولا شك أن « كواكى » كان يعلم مدى تمسكنـا فى بلادنا بالوعد الذى ننطق به . على أنه لا يلح فى الحصول منى على هـذا الوعد ، ولـكنه ألح على أن أوقع على تلك الوثيقة التى لا يعـرف

أحد منا ما تحتوى عليـــه ، لجهله بالقراءة أولا ولأن التعليمـات الصادرة اليه تحظر على الاطلاع على محتوياتها .

وسألته مرة أخرى : ولـكن اذا كنت لا تعـــرف القراءة .. فـكيف يتسنى لك أن تتأكد بأن توقيعى على الوثيقــة ، هو نفس توقيعى الصحيح ؟ .

وفى الحال ، سحب « كواكى » من جيبه الخلفى بطاقة مصلحة العمل ، وفى سكون وصمت ، بسط الجانب الآخر من البطاقــة ، وأشار الى ما أدركت انه توقيعى !

ثم قال : ان الانسان هو الذى يعلم أخاه القراءة والكتابة .. ولكن عين الله هى التى تهـديني الى أن أتطلع الى التوقيعين ، وهى التى تخبرنى وتعيننى على التأكد بأن كليهما توقيع لشخص واحد !

واذن فقد كان «كواكى» يحمل معه صورة من توقيعى ، واذن فقد أعدت الخطة باحكام واتقان .

وفى لحظات ، كان على أن أتخذ القرار الأخير ، وتوالت الأفكار على خاطرى سريعة متعاقبة .. من السهل أن يفقد الانسان نفسه فى «سونجهاى» دون أن يدرى به أحد . فى وسط ذلك التيار العارم من الناس .. اننى لا أجيد السباحة ، كما اننى أعلم أن «كواكى» يجيد السباحة اجادة الاسماك لها .. ومن الممكن تركى على ظهر اللنش حتى تبتلعنى المياه فى جوفها .

هذه هى الهواجس التى راودتنى قبل أن أتخذ قرارى الأخير بالتوقيع على تلك الوثيقة المجهولة .

واستقر رأيى أخيرا ، وقلت لـكواكى :

— حسنا يا كواكى .. هات الوثيقة .. سأوقع عليها !

وبدت على كواكى علائم الفوز .. ثم قال :

— هل تعدنى ياسيدى بأن يظل هذا الذى حدث سرا لايذاع ؟

ـ أجل . هذا وعد منى بذلك .. كان هذا جوابى عن سؤاله .

وتحدثت الى نفسي على الفور . أنت من الغباوة بمكان ياكواكى .. اذا دار فى خلدك اننى ـ سواء كنت افريقيا أو غير افريقى ـ سأحتفظ بوعدى هذا لك .

وتركنى « كواكى » الى حجرة تشغيل اللنش الذى وصل بى الى الشاطىء ، دون أن يظهر اثر لكواكى ، الذى اختفى فى ظلمات الميــاه .. !

- ١٢ -

كتمت سر هذا الحادث عن كل انسان الا « صامويل »وقررت دعوة « كاى كاى » المحامى وأحد الاعضاء « الحواريين » الذين أسسوا الحزب . ليلحق بى فى منزل صامويل . حيث كنت أقيم هناك . حيث نتوجه معا الى ادارة البوليس لابلاغها بالحادث . إذا وافق « كاى كاى » على ذلك .

ويبدو أن قرارى جاء متأخرا .. ففى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم . ظهرت الصحف وهى تحمل أنباء مشروع مستر رايت . بشأن ادماج الحزبين ، ووعدت القراء بأنها ستنشر فى اليوم التالى صورة فوتوغرافية عن رسالة موافقتى على ذلك المشروع .

واجتمعت على الفور بأعضاء اللجنة التنفيذية للحزب وأبلغتهم القصة بحذافيرها . وأعلن الاعضاء على الفور موافقتهم على كل كلمة جاءت فى القصة ووجدنا أنه من اللازم ابلاغ فروع الحزب بحقيقة الحادث والى المرشحين والناخبين على وجه السرعة .

وبحث صامويل عن « ميكانيكى » اللنش الذى قرر بدوره أنه لم يسمع شيئا . وانه كان مشغولا باصلاح الموتور . وانه لم يشاهد ولم يسمع شيئا غير عادى وهو على ظهر اللنش !

وقررنا البحث عن « كواكى » . ثم وجدنا أن العثور عليه فى هذه المدينة الواسعة من الصعوبة بمكان .

وتركت صامويل وكاى كاى فى ساجرسا واتجهت بدورى الى « لوكو » وأبلغتنى « كانيدا » ان « فاطماتا » تريد رؤيتى على وجه السرعة ، فلم أتوان ، وكان أول ما قالته عند رؤيتى لها أن أصف لها ملامح « كواكى » وعندما انتهيت من وصفه لها . قالت انها تعتقد بأنه موجود فى « لوكو » وقالت انها شاهدت شخصا تنطبق عليه هذه الاوصاف . وانه احتجز فى مركز التفتيش الجمركى حيث عثروا عليه مخمورا .

* *

وبعد مرور ستة أشهر على هذا الحادث أصبحت رئيسا للوزارة وزج « كواكى » هو واثنان من زعماء حزب الاتحاد الوطنى للمستعمرات .. فى السجن بعد اكتشاف المؤامرة الدنيئة التى حاولوا بها خداع الشعب باكراهى على التوقيع على وثيقة ادماج الحزبين قسرا .

وكانت مدة العقوبة المقررة على صامويل وفاطماتا قد انتهت وأفرج عنهما . وكانت أنباء حمل « كانيدا » قد ملأت « فاطماتا » بالسعادة .

وحان موعد الانتخابات العامة فى البلاد . وهى الانتخابات التى أسفرت عن فوز أعضاء الحزب بالاغلبية . والتى وقف رجال الحكومة فيها ضد الاوربيين . خلال تلك المعركة . وهم يراقبون افتتاح الباب الذى يدركون بأنه سيأتى اليوم الذين سيخرجون فيه حتما .. ليدخل منه أصحاب الحق الشرعى من أهل البلاد .

* * *

وعند اعلان نتائج الانتخابات فى « لوكو » أسرعت على الفور فى طريقى الى « ساجرسا » حيث وصلتها عند شروق الشمس . وكانت المدينة خالية من الناس فى حين أن مراكز اعلان النتائج كانت تعج بهم .

وفى ذلك المساء عندما اجتمعنا فى منزل « صامويل » بحثنا فيه تشكيل الوزارة ووضع الخطوط العريضة للمشاكل السياسية

التى نعلم بأنها من المشـاكل العاجلة الملحة . ووجدنا بعـد ظهور النتائج الاخيرة للانتخابات . أننا حصلنا على ثلثى مقاعد مجلس النواب على الاقل .

وبعد ظهر اليوم التالى . دق جرس التليفون فى مكتبى وقال صامويل انه يراهن على أن المتحدث هو « الوزير الخاص » ولم يخسر صامويل رهانه ..

* * *

ودخلت لأول مرة منزل الحاكم العام . وعادت بى الذاكرة الى تلك الاعوام السحيقة . وقت أن وفدت الى « ساجرسا » وأنا طفل صغير أتحدث الى رجال حرس القصر ولا أجرؤ على الاقتراب من أبوابه . شأن كل طفل صغير وفد من الغابات ليشاهد ذلك البناء الشامخ لأول مرة .

وتناول الحديث الذى دار بينى وبين سير هوارس مونتاى بيدبوره .. تشكيل الوزارة والتعينات الاخرى . وقد أبدى الوزير الانجليزى موافقته على مقترحاتى فورا . وتركنـا التفـاصيل الاخرى . على أن تبحث فى وقت آخر . وتركت قاعة الاجتماع الى منزل صامويل لابلاغ زملائى بما حدث .

ربما كانت اللحظات التى نضيق بها جميعا أشد الضيق .هى اللحظات التى ندعى فيهـا الى حضور المؤتمرات الدوليـــة .. المؤتمرات التى تتناول بحث الشئون الفنية الخاصة . كشـئون الابحاث الطبية وتنمية وسائل صيد الاسماك ، بعكس المؤتمرات الدولية السياسية أو التى تبحث فى الشئون الدستورية والتى نجد فيها مطالبنا .

وكان الذى يضايقنا فى تلك المؤتمرات الدولية الفنية عندما تعقد جلساتها فى ساجرسا . أن تقتصر مجهودات الوزير المختص على القاء خطاب التحية للاعضاء فى حفلة الافتتاح .

وتلافيا لهذا . قررت أن يصـحبنى دكتـور بولنج كبير

المستشارين فى الشئون الطبية فى سونجهاى عنـدما دعيت الى حضور مؤتمر البحث فى أسباب زيادة وفاة الاطفال الذى تقـرر عقده فى جمهورية « كانم » والذى دعيت الى حضوره بوصفى وزيرا للصحة فى بلادى الى جانب رياسة الوزارة . والذى أتاح لى فرصة تحقيق أمنيتى فى زيارة الجمهوريات الافريقية المسـتقلة حديثا .

***

عقدت جلسـات المؤتمر فى مدينة « ليكفيل » ـ العاصمة ـ وأذكر بهذه المناسبة تلك الساعات المملة التى قضيتها فى احدى جلسـاته وأنا أستمع الى تلك « الرطانة » العبيـة التى لم افهم منها شيئا .

وأذكر أيضا أن وزيرا من وزراء جمهورية « كانم » انتحى بى جانبا فى تلك الجلسة . وأسر الى بقوله انه يجب علينا أن نعهد الى « الخبراء » مهمة حماية مصالح المرشحين للانتخابات كمـا نعهد اليهم أيضا بمهمة توسيع الحدود الطبية بين الدول الافريقية .

***

دعانا رئيس وزراء جمهورية « كانم » الى تناول الطعام فى مقره الرسمى الذى لايبعد قليلا عن « ليكفيل » العاصمة .

وعندما كنا نتناول الشراب . فاجأنا بقوله : « أيها السادة . أحب أن أتناول معكم بالبحث موضوعا . أرجو أن يتم بحثه بيننا بصفة غير رسمية . دون أن تلتزم أى من الحكومات الممثلة فى المؤتمر بأى التزام . وأرجو أيضا ألا تسجل المناقشات التى تدور فى هذا الاجتماع .

وأحب أن أدخل فى الموضوع فورا وبدون مقـدمات وهو أن أتوجه اليكم بهذا السؤال : هل أنتم الآن على استعداد أنبدأ معا تخطيط واعداد مشروع « الولايات المتحدة الافريقية ؟ »

اننى أعتقد ـ بصراحة ـ انه لم يكن من المستطاع أن أتقدم بمثل هذا المشروع قبل الآن بسنوات . فقد كانت الدول الافريقية مشغولة فى تلك السنوات بترتيب المنزل واعداده . كما يقولون .

وأعتقد الآن أنه قد آن الأوان لبحث هذا الموضوع . بعد أن استقلت الدول الافريقية بأجمعها أو أوشكت كلها على الاستقلال وبعد أن ازدهرت فيها الحياة . ويسودها الامن . ويحكمها النظام» .

وأبديت له موافقتى الحتمية على مشروعه قائلا « أننا بحثنا مثل هذا المشروع بصفة غير واضحة أو مفصلة فى اجتماعات الحزب . وأعتقد أنه من المشروعات التى تضمن سلامة الدولة الافريقية الصغيرة » .

* * *

وفجأة . بحث رئيس الوزراء عن شىء فى مكتبه ، وكان ذلك الشىء رسالة مكتوبة قال عنها انها تستحق البحث أيضا ، وقال انها تحمل عنوانا من جوهانسبورج .

قال صاحب الرسالة موجها حديثه الى « عزيزى أوما جونز» رئيس وزراء كانم

« هذه صرخة الم من مقدونيا . أنت تعلم كيف أن البيض هنا انتهكوا حرمة الدستور فى جنوب أفريقيا . تمكينا لهم من استعباد السكان الوطنيين والملونين منهم .

لقد حاولنا أن نرد هذا الهجوم بالطرق الدستورية على أن الموقف ــ بدلا من السير فى طريق التحسن ــ أخذ يزداد سوءا يوما بعد يوم وعاما بعد عام .

لقد تم لكم السيطرة على بلادكم وأن أبناء عمومتكم فى جنوب أفريقيا يتوجهون اليكم بالنداء لتذكروا أنه قبل أن يجىء الرجل الابيض الى هذه البلاد ، لم تكن هناك تلك الحدود السياسية بيننا وبينكم . نتيجة لروابط الدم والجنس التى تجمع بيننا .

واذا لم تستمعوا الى ندائنا وتسرعوا الى مساعدتنا . فليس هناك من يمكنه أن يساعدنا سواكم .. وسنفقد الامل فى النجاة الى الابد .

ان ما نطالب به هو أن تتفق الاحزاب السياسية فى بلادكم على أن تقرضنا عشرة ملايين من الجنيهات . وسنستخدم هذه الاموال فى تمويل آخر معركة يائسة تهدف الى خلق دولة لاتعرف حدود اللون ولا قيود الجنس . ويعيش أهلها فى هذا الاتحاد فى مساواة سياسية حقيقية ».

نحن نعتقد بأن جنوب افريقيا هى وطن البيض والملونين على السواء ونحن لانرغب فى طرد البيض او استئصال شأفتهم من البلاد

ان غاية ما يسعى اليه البيض فى هذه البلاد هو الحصول على الاموال واستغلال العمال ولا يرغبون فى الحصول على أصـواتنا ولا يرغبون فى مجتمعنا .

اننا نقترح القيام بحملة واسعة النطاق لتحقيق اهدافنا .

ان غاية مانطالب به هو المال الذى سنستخدمه فى كفاحنا ونحن نعتقد بأنه سيمكننا رد هذه الاموال فى يوم ما .

اننا نعتقد بأن الله سبحانه وتعالى سيساعدنا وأن قضـيتنا عادلة وان بلادنا العزيزة ستصبح ـ كما شاء الله أن تكون ـ المكان الآمن لنا ولاطفالنا أيا كان لوننا وجنسنا .

وأننا فى انتظار الرد » .

وطلب منا مستر أوما جونز أن نبدى راينا وقال احد المندوبين انه لايمكنه ابداء رأيه قبل مشاورة حكومته .

والتفت الى مستر جونز فأجبته انني فهمت الموقف على حقيقته .

وقلت انه كان يجب أن نستعد لانشاء الاتحاد الفيدرالى للدول الافريقية ولكن الذى أقترحه الآن هو الدعوة الى عقد مؤتمر لجميع الدول الافريقية ـ جامعة الدول الافريقية ـ .

ومددت اليه يدى قائلا .. هذا وعد منى اننى سأبذل ما فى وسعى نحو انشاء الولايات المتحدة الافريقية . وبعثها الى الوجود . وان أعمل على مساعدة اخواننا فى جنوب افريقيا ، لتحقيق الاهداف التى وردت رسالة حزب المؤتمر الوطنى الافريقى التى تليت علينا الآن . سواء وافقت حكومتى على ذلك أو لم توافق .

- ١٣ -

وانتهت جلسات المؤتمر وعدت الى سونجهاى لأقدم تقريرا عن أعماله الى زملائى . فى الاجتماع غير الرسمى الذى عقد فى منزلى . وهو الاجتماع الذى عرضت فيه عليهم رسالة جنوب

افريقيا . وهى الرسالة التى قرأها علينا رئيس وزراء « كانم » فى ذلك الاجتماع .

وكما هى العادة . كان صامويل أول المتحدثين فأعلن تأييده لما جاء فى الرسالة . وقال ان الشعوب الافريقية ستسقط مرة أخرى الى الحضيض . اذا تهاونت فلم تساعد شعب جنوب افريقيا وتركته يسقط الى الحضيض .

وسأل أحد الوزراء عن الكيفية التى سيوزع بها القرض المقترح على الدول التى ستساهم فيه . وسأل مندوب آخر عن رأى رئيس وزراء كانم فى ذلك الموضوع .

كان جوابى أن رئيس وزراء « كانم » لم يبد رأيا فى ذلك الموضوع وانه ترك موضوع التفاصيل الى حين الاتفاق على المبدأ وانه أعرب عن أمله فى أن تكون هذه الخطوة مقدمة لتعاون أشد وأقوى بين الدول الافريقية وانه أشار أيضا الى اقتراح عقد مؤتمر يضم جميع الدول الافريقية .. يتولى بحث تفاصيل القرض المقترح . اذا وافقت جميع الاطراف المعنية على المشروع من حيث المبدأ .

قال صامويل : هل تسمحون لى بالسفر الى جنوب افريقيا لأتولى بنفسى هناك تنظيم عملية مقاطعة الوطنيين للمناجم التى يملكها البيض » .

والواقع لقد حملنا اقتراح صامويل على انه دعابة ولو ان الفكرة نفسها تركت أثرها فى تفكيرى .

ووافقنا على ابلاغ رئيس وزراء « كانم » موافقتنا على مشروع القرض المقترح من حيث المبدأ .

* * *

احسست فجأة اننى فى حاجة الى التماس المشورة من « فاطماتا » وحدث أثناء وجودى معها أن وجهت الى هذا السؤال .. هل تثق فى صامويل ثقة كاملة؟ .. فكان جوابى أن ثقتى

به لاحد لها . غير اننى سألتها بدورى أن تفصح لى عن سبب ذلك التساؤل .

فقالت : انه اذا كانت ثقتى بصامويل الى هذا الحد فان ارادة الله تحتم على السفر الى جنوب أفريقيا . على أن يتولى صامويل ادارة شئون الدولة فى غيابى .

وحتى تلك اللحظة كنت أرفض قبول ذلك الذى يبدو لى أنه مصيرى . وهو انه من الواجب ان أسافر الى جنوب أفريقيا . لخدمة قضية المؤتمر الوطنى لجنوب أفريقيا ولأسعى سرا للكشف عن قاتل « جريتا » والواقع . لقد بدت لى هذه الرغبات على أنها رغبات سخيفة فقد تقلدت أكبر وظيفة يطمع فى تقلدها مواطن فى « سونجهاى » وأتيحت لى فرصة اعداد حياة أفضل لبنى وطنى . لا عن طريق العمل وحده ولكن بتلك التصرفات التى أبديها والتى يرون فيها المثل الاعلى لحياتهم العامة والخاصة وأصبحت أنعم بحياة منزلية سعيدة .

ثم عدت الى نفسى . وجعلت أتصور مدى المعاملة التى بدت من « فاطماتا » وهى تقول لى أنه لابد من عودتى سالما من جنوب أفريقيا .

ان سفرى الى جنوب أفريقيا . وعودتى منها ، ليس أمرا سهلا . . فهناك مظاهر العداء التى ستبديها حكومة جنوب أفريقيا نحوى . وهناك أيضا تلك الاضطرابات التى قد تقع أثناء وجودى هناك .

وعلى الرغم من هذا كله . فقد شعرت فى قرارة نفسى بأن هناك قوة . تفوق ارادتى وتتفوق على غريزتى . وتدفعنى الى أن أقوم برحلتى الى جنوب أفريقيا . وهى قوة أشعر بأنه ليس فى مقدورى أن أقف أمامها واقاومها .

لقد كان فى عزمى أن أعتزل الحكم . عندما تنتهى الدورة البرلمانية . على أننى عدلت عن رأيى اذ كان يجب أن احضر مناقشة الميزانية . وكانت هناك قرارات هامة تنتظر موافقتى ودراستى لها

وتمر الايام والاسابيع سريعا . ويقترب معها موعد انعقـاد مؤتمر جميع الدول الافريقية الذى تقرر عقده فى منواى «ليكفيل» فى « كانم » وهو المؤتمر الذى أدهشنى فيه ان أوما جونز رئيس وزراء « كانم » . التزم فيه هذه المرة ، موقف المتفرج فلم يشترك فى مناقشاته . بنفس الحماسة التى اشترك فيها فى مناقشـات مؤتمر بحث الامراض الذى عقد قبل ذلك فى « ليكفيل » .

وقد حاولت مرة أن أتعرف منه عن أسباب هذا العزوف عن الحياة السياسية فقال أنه يؤثر ان يتولى الشباب شئون الدولة. وان حادث قتل زوجته قد غمره فى لجة من الاحزان ووجد نفسه أخيرا انسانا آخر .

***

واعلن صامويل فى المؤتمر عن رأى حكومة سونجهاى . وهو أن القرض المقترح . يجبأن ينال موافقة جميعالاحزاب السياسية التى تمثلها الحـكومات المشـتركة فى المؤتمر ، والا تقتصر هذه الموافقة على الحكومات وحدها .

وتساءل مندوب شرق أفريقيا . هل سـيعود المؤتمر الى الانعقاد مرة أخرى؟. وتساءل أيضا هل يوافق المؤتمر على تأليف لجنة دائمة تكون مهمتها الاعداد لعقد مؤتمرات أخرى كلما دعت الحاجة الى ذلك ؟..

وانبرى صامويل . وكان يرأس تلك الجلسة . وتساءل عن الحكمة فى عقد سلسلة من المؤتمرات واقترح تقديم اقتراح على الفور لانشاء اتحاد فيدرالى يضم الدول الافريقية .

وفى « ليكفيل » أبلغت « صامويل » بذلك السر الذى لايعلمه أحد سوى « فاطماتا » وهو اعتزامى اعتزال الحياة العامة بعـد انتهاء فترة رياستى الحالية . ولم أشر له فى حديثى انى« فردريك» ومحاولة الكشف عن قاتل « جريتا » .

والواقع ان صامويل قابل نبأ اعتزامى اعتزال الحياة العامة وسفرى الى جنوب أفريقيا بما آثار دهشتى . فلم يحرك ساكنا. واكتفى بسماعه دون أن يسألنى شيئا !!

والواقع ان صامويل كانت تبدو عليه علائم الصمت فى اكثر الأحيان ، وفىمقدورى أن أرى فى دخيلة نفسه معركة داخلية بشأن مسألة ما ، ولقد حاولت أن أتعرف على هذه المعركة والباعث عليها .. وسألت نفسى هـل صامويل هو الآخر يعتقد بأن عودتى من جنوب أفريقيا من الأمور التى يمكن أن تصبح موضعا للشـك .. وبدا لى أنه عندما يفكر فى غيابى يرى كأنه أصبح كالكسيح الذى فقد عصاه التى يتوكأ عليها .. لم يسرقها منه أحد ، ولكنه فقدها هكذا بمحض ارادته .

ومضيت فى اقناع صامويل انه قادر على القيام بمهمة قيـادة الأمة فى غيابى وانه ليس هناك ما يخشاه .

***

وفى الصباح التالى ، ظهرت صورتى الفوتوغرافية على صفحات الصحف من القاهرة الى «كيب تاون» وفيهـا ما أسـفرت عنه قرارات مؤتمر شعوب جميع أفريقيا من تكوين لجنة تعاون دائمة دون أن نشير فى قراراتنا الى مشروع القرض المقترح وموافقـة الدول المجتمعة عليه من حيث المبدأ ، وأشارت الصحف أيضا الى موافقة المؤتمر على التخطيط لمشروع انشـاء الاتحاد الفيـدرالى لحكومات افريقيا ، وأشارت الى اختيار رئيس وزراء سونجهاى لرياسة اللجنة الدائمة ، وكانت هذه أول مرة يطالع فيها العـالم أنباء عن سونجهاى .

وانتهت أعمال المؤتمر ، وعدت أنا وصامويل الى «سونجهاى» .

***

بدأت سلسلة من الاتصالات السرية بالمؤتمر الوطنى لجنوب أفريقيا بشأن القرض المقترح لذلك المؤتمر .. وكتبت اليهم عما اذا كان المؤتمر ــ الى جانب المسـاعدات المـالية ــ يرغب فى مساعدات أخرى ، لتدريب رجاله على أعمـال القتال وجاء الرد وهو يحمل الرفض المؤدب ..

وكتبت اليهم مـرة أخرى ، أطلب اليهم ان كانوا فى حاجـة الى خبراء يتولون أعمـال الاشراف على القرض وتنظيم عملية

الصرف ، فكان الرد هذه المرة ان المعركة التى يخوضها المؤتمر هى معركة جنوب افريقيا وحدها ، وانهم لم يطلبوا منا منحة ولكنهم طلبوا منا قرضا وقالوا انهم يريدون أن تكون المعركة قاصرة على جنوب افريقيا وحدها ولا يريدون أن تتورط معهم دول افريقية أخرى ..

وقالوا ان حكومة جنوب افريقيا لاتستطيع أن تقوم بأى اجراء ضدهم ، ما دام القرض الذى يصلهم ، انما يجيء من فريق من الاحزاب السياسية الاخرى ، وانه اذا وضعت حكومة الاتحاد يدها على أى أجنبى ، يجيء الى البلاد ضمن بعثة من البعثات التى اقترح ارسالها ، فان انتقامها سيكون انتقاما لا حدود له .

وطلب من المؤتمر أيضا أن أبين لهم هل القرض مشروط أو غير مشروط ؟..

كانوا على حق ، وكانوا بالفعل أحرارا فى أن يخوضوا معركتهم بالطرق والوسائل التى يرونها أصلح ، على أن هذا الرفض من جانبهم كان يعنى ان آمالى فى السفر الى جنوب أفريقيا ضمن أية بعثة مقترحة .. قد تلاشت ..

على أننى لم أفقد الأمل ، وقررت أن يكون سفرى سريا .. وبدأت التدريب على استخدام لغة «البانتو» وبدأت فى دراسة جغرافية جنوب افريقيا ، ومنها الخريطة التى أعدها حزب المؤتمر وتبدو فيها مناطق سكنى الأجناس المختلفة فى جنوب أفريقيا .. وحفظت ما فيها عن ظهر قلب ، ووجدت اننى فى سبيلى الى مغامرة مجهولة ، وانه من الواجب أن أزود نفسى بكل سلاح فقرأت كل كتاب وقعت عليه عينى حول أفريقيا وما ورد عنها فى دوائر المعارف .. وحفظت بعض أغانيها الوطنية وألوان الرقص فيها ..

وأذاع حزب المؤتمر الوطنى الافريقى بيانا كاملا عن مشروعاته فى الوقت الذى أوشكت فيه فترة تقلد الحزب فى سونجهاى شئون الحكم على الانتهاء .. تمهيدا لاجراء انتخابات عامة جديدة ..

ولم ينشر المؤتمر فى بيانه تاريخا محددا لتنفيذ قرار المقاطعة ولكنهم أبلغونى به ضمن رسائلهم السرية لى .. وكان الرأى الذى

اتفق عليه الزعماء هناك .. تنفيذ قرار الأحزاب تنفيذا محكما .. بحيث يتم اعلانه ساعة الصفر فى كل مكان ، وفى كل مدينة أو قرية وفى وقت واحد .. على أن يعلن المؤتمر ذلك بقرع الطبول الذى ينتقل من مكان الى مكان ، معلنا بداية تنفيذ قرار المقاطعة الشامل.

وقبل أن أبدأ مغامرتى الكبرى ، أعلنت أننى سأقوم برحلة فى البلاد ، وغادرت ساجرسا الى «لوكو» ليبارك لى والداى هذه المغامرة ثم لأستوحى منهما رأيهما وما يحسان به وعما اذا كنت سأعود الى سونجهاى وتكتب لى السلامة مرة أخرى .. وهل ما سأقوم به هو الحق بعينه ، أو أنه ضلال يجب أن أتنحى عن السير فى طريقه .

***

أبلغت والدى عن مشروعاتى واننى فى طريقى الى بلاد أخرى فى افريقيا لأساعد أهلها على أن تتاح لهم فرص التحكم فى شئونهم .. كما أتيح لنا أن نتحكم فى شئون بلادنا ، ووافق والدى على مشروعاتى وقال انه على ثقة بأن الله سبحانه وتعالى سيتولى حمايتى ورعايتى ، واننى سأعود الى «سونجهاى» سالما باذن الله .

وفى ذلك المساء أذاعت حكومة جنوب أفريقيا بيانا كررت فيه دعواها السابقة وزعمت فيه أنه لا توجد من الأسباب التاريخية التى يمكن معها اعتبار الملونين فى البلاد مواطنين فيها على اعتبار ــ كما جاء فى بيانها ــ ان هؤلاء الذين يقولون من أنفسهم أصحاب البلاد من المواطنين افراد القبائل.. انما وفدوا الى جنوب أفريقيا فى وقت كان فيه السكان البيض يسكنون البلاد من قبلهم . ورد حزب المؤتمر على هذا البيان ردا حازما ، فند فيه تلك المزاعم . وقال فيه ان الحدود التى فرضتها حكومة الاتحاد ، حدود سياسية مصطنعة ، شأنها فى ذلك شأن الحواجز والحدود الأخرى التى فرضتها الدول الاستعمارية فى افريقيا .

وقال المؤتمر فى بيانه انه يستهدف القضاء على سياسة التفرقة العنصرية ــ ولا يسعى أبدا الى القضاء على اقامة البيض فى البلاد.

وقال المؤتمر في بيانه ان معركته تستهدف ضمان المساواة في الحرية والفرص والتعليم للجميع على قدم المساواة وان هـذه المساواة هي أمر حتمي لا مفر منه في المستقبل ، وان اتباع سياسة غير هذه السياسة يعني الثورة واراقة الدماء .

ووجدت نفسي أقرأ بيـان حزب المؤتمر مرة ومرات ، وخيل الي انني حفظته عن ظهر قلب ، وغمرني شعور بالرضى وانا أقرأ لفظ « الوطن » وهو اللفظ الذي كان يعني الاحتقار عند ما كان يطلق على واحد من الملونين والذي أصبح الآن من الألفـاظ التي يتيه بها صاحبها فخرا .

ان الوطنيين في جنوب افريقيـا لا يزالون يمدون أيديهم الى ضيوفهم من البيض ، بأنه لا عنف ، ولكن المساواة في ظل القانون .

- ١٤ -

كان أول ما فعلته في صباح اليوم التالي أن نزعت قطعة الماس المعلقة حول عنقي ، فقد قررت أن أتركها في سونجهاي لأنني كنت أعتقد بأنني سألاقي حتفي وهي معي . وكنت أرجو من أعماق قلبي أن أعود مرة ثانية الى بلادي وأن لا تكون جنوب أفريقيا مقبرتي .

قلت لوالدي في ذلك الصباح انني سأبدأ رحلتي فورا ، وانني أترك معه قطعة المـاس ليحتفظ بها ، وهي القطعة التي كان قـد أعطاها لي قبل سفري الى بريطانيا وطلبت منه أن يحافظ عليهـا لأنني سأعود مرة أخرى الى سونجهاي ..

وكتبت رسـالة استقالتي التي أعلنت فيهـا انني أستقيل لأسباب شخصية ، وأبلغت زملائي انني لا ارغب في ترشيحي لأي منصب آخر سواء لعضوية مجلس النواب أو لرياسة الحزب .

وتمت الاستعدادات النهائية للرحلة ، ووضعت مبلغ الخمسمائة جنيه التي كانت معي في حقيبة ملابسي التي كان قد تم تجهيزها . وتناولت غداء ثقيلا ، وانتهزت فرصة الفتور التي يشعر بها سكان

القرية بعـــد تناول الطعام ، وخلو القرية من معظم سكانها الذين راحوا يلتمسون غفوة قصيرة ، وقفزت من الحديقة الخلفية لمنزلنا وبدأت مغامرتي بالسير فى طريقى الى ذلك المستقبل المجهول .

واتجهت فى طريقى الى منطقة الحدود ، وعندما أيقنت انني اصبحت فى أمان ، اختفيت بين الأحراش ، وأحرقت الثياب التى كنت أرتديها ، وارتديت ملابس أخرى وأزلت شــعر رأسى التى بدت بعد ذلك فى نعومة البيضة ووضعت نظارة سوداء على عينى ؛ وعدت مرة أخرى الى الطريق ، واستوقفت سائق لورى ، ساومته وساومنى . واتفقت معه أخيرا على أن يقودنى الى المدينة التى تقع على الحدود ، وجلست بين الطيور والماشية على ظهر اللورى .

ويصل بنا اللورى عند نهاية رحلته الى احـدى القـرى التى اعلم من طابع بريدها الخاص ، اننا أصبحنا على مســافة ميل أو ميلين من منطقة الحدود ، وألتجىء الى احدى الاحراش التى تقع خارج القرية وأتناول هناك بعض ما كنت أحمله معى من الاطعمة الوطنية ، ثم أحس بأن التعب قد استبد بى ، فأضع حقيبة ملابسى تحت رأسى ، ويغلبنى النوم ، وأستيقظ عند الظهر وأنا أشعر بأننى استمتعت بأحسن وأبهج فترة نوم فى حياتى .

وجمعت حاجياتى واتجهت لاختراق الحدود ، وهى حـدود غشيمة بسيطة ، كان يقف عنـــدها رجال البوليس ، ولـما كنت لا أحمل أوراقا تدل على شخصى ، فقــد أدركت انه لا جدوى من الافلات من مراقبتهم ، وعدت أدراجى الى الغابة مرة اخرى

واستحال علي الافلات مرة أخرى ، ولـكننى حاولت ومضيت فى طريقى ، مستعينا بالبوصلة التى كنت أحملها ، أتجنب السير عند الجسور ومعابر الانهار . ولست أخفى أن مشــاعر الخوف كانت قد استبدت بى فى ذلك المساء . والذى أخافنى بصفة خاصــة أن يلقى رجال البوليس من قوات سونجهاى القبض علي ، وبدا لى انه لو تم القبض علي ، فسيتبادر الى أذهانهم أننى مصاب فى قــواى العقلية ولست من المخالفين للقانون ، والا فما هى الدوافــع التى

تجبرني – في رأيهم – على سلوك هذا الطريق على هذه الصورة »

كنت أستعين ، خلال تجوالي في الغابة ، بأعواد الثقاب لتهديني الطريق ، وأشاهد في ذلك الظلام الحالك ، وعلى بعد مسافة بعيدة نورا ينبعث من احدى المصابيح وأشهد في تلك الليلة ، وفي ظلام الغابة ، مغامرة مثيرة تدور حوادثها بيني وبين صاحب المصباح المنير تنتهي بأن اقترب منه ، والخوف يملأ قلب كل منا ، ثم نقف جامدين لا نتحرك ، أنا يملأ قلبي الرعب . وهو بدوره لا يزال يحمل معه مصباحه . وفجأة يتبدل الموقف . وبعد أن ألقيت في وجهه بكلمة واحدة ، كلمة تحية ألقيتها في وجهه بلغة « الهوسا » بدت على اثرها الابتسامة تعلو وجهه ، وتوثقت على أثرها صلة عجيبة من الصداقة جمعت بيننا فجأة في ذلك الظلام

وربما كان الباعث على توثيق هذه الصلة هو الفعل الناشيء عن الخوف الذي كنا نشعر به ، أو ربما كانت حاجة كلينا الى صديق، قبل أن يهبط علينا الليل ، هي التي دفعت كلا منا الى هذه الصداقة التي نشأت هكذا فجأة .

* * *

قال لي صديق الغابة والظلام ، انه عاد في التو من رحلة على الحدود . وعلى موعد سابق مع أحد الاشخاص ممن يشتغلون بمهنة بيع الماس ، وقال انه حدث خطأ في ترتيب الموعد . وانه لم يقابل ذلك العميل . وانه لم يجرؤ على الانتظار مدة أخرى . وانه في طريقه الى الجانب الآخر من الحدود . حيث يقوم هناك بادارة محطة بيع البترول . كستار يخفي وراءه عمله الاصلي ، وهو تهريب الماس .

واستعدت شجاعتي مرة اخرى وسألت صديقي .. لماذا يحتفظ هكذا بمصباحه مضيئا .. فيتيح لرجال البوليس فرصة رؤيته بسهولة ؟

وتوقف الرجل عن الاجابة مدة ، ويبدو انه كان يزن كلامي . ويبدو أخيرا ان اعتزازه بذكائه ، جعله يتخلى عن حيطته وحذره . قادني الرجل بيده وجعل يتفحص المصباح ، وأشار الى الموضع

الذى يملأ بالكيروسين وكشف عنه ، فاذا به منجم صغير من قطع الماس المختلفة الاحجام وقال الرجل . وهو يسر فى أذنى فى وسط تلك الاحراش :

– عندما يعثر عليك رجال البوليس فانهم يقومون بتفتيش حاجياتك وكل ما يجدونه من متاع فى مسكنك .. ولكنهم لا يفتشون أبدا المصابيح المضاءة !!

وقص علي الرجل طرفا من تاريخ حياته ، واعترف بأنه يقوم بعمليات تهريب الماس منذ سنوات ، وأنه أثرى منها كثيرا .

ولم أشأ أن أبادله ثقته بمثلها ، فزعمت له اننى فى طريقى فى مهمة عاجلة الى ميناء يقع على الحدود واننى لم أجد فسحة من الوقت لأحمل معى جواز المرور ، مما أجبرنى على المخاطرة بهذه الرحلة ..

وفجأة .. وعلى غير انتظار قلت للرجل :

– هل ترغب فى أن تبيع هذه الماسات لى ؟ فكان جوابه انه يرغب فى بيعها فعلا ، وانه لم يسبق له القيام برحلات فى هذا الاتجاه وهو يحمل هذا المصباح الثقيل الوزن وأنه من أجل ذلك انتابه الخوف عندما رآنى واقفا كالشجرة لا أتحرك من مكانى .

وعرضت عليه على الفور أن أشترى منه المصباح نظير مائتين وخمسين جنيها تدفع له نقدا فى الحال .

وانتهت الصفقة ، وأدهشنى أن عميلى الجديد لم يكف نفسه مئونة عد النقود ، تماما كما يحدث بين الاخوة الصادقين .

وأبدى لى شكره الفائق ، وقال انه لم يقابل عميلا مثلى من قبل ، ولم يتعامل أبدا بمثل هذه السهولة ، وفى مقابل ذلك المبلغ الضخم من المال

ثم سألنى هل أحمل معى نقودا أخرى ، فأجبته بأننى احمل مبلغا يساوى المبلغ الذى دفعته ثمنا لمصباحه وماساته . وأبدى لى استعداده لأن يقودنى الى الطريق الآمن المؤدى الى الحدود لمعرفته الكاملة بتلك البلاد ، موطنه الاصلى ، كما قال

وطلب منى أن أطفىء المصباح لأنه لو عثر علينا رجال البوليس ، فسيقومون بتفتيش الحقيبة

وبعد ست ساعات من السير فى الظلام وصلنا الى مشارف احدى

القرى التى تقع عبر الحدود، واستودعنى صديقي ومضى فى طريقه،
وحتى لا أتعرض لاخطار التفتيش ، أفرغت الكيروسين من المصباح ، وأفرغت ما فيه من الماسات فى حقيبتى ، وألقيت بالمصباح فى عرض الطريق ولمحت لوريا ، استوقفته وحملنى سائقه الى أقرب قرية حيث عثرت هناك على منزل متواضع يملكه أحد أفراد قبيلتى ، وأمضيت عنده ليلتى وفى صباح اليوم التالى ، أغريت سائق سيارة البريد بالمال ، ليحملنى معه الى عاصمة تلك المنطقة

***

قررت عند عودتى الى «سونجهاى» أن أسعى للاجتماع بصاحب المصباح المضىء صديق الغابة والاحراش وأحدثه على مدى غباوته عندما توقف فى الطريق عند تلك القرية ، ولم يجىء الى العاصمة ليعقد بنفسه صفقة ماساته ! . فقد قبضت فى تلك المدينة خمسة عشر ألف دولار أمريكى ثمنا للماسات التى دفعت فيها لصديقى صاحب المصباح المضىء ، مائتين وخمسين جنيها استرلينيا !

أصبح لدى المال الكثير الذى يكفينى مغامرتى الجديدة واستبدلت ملابسى ، التى جعلتنى أبدو وكأننى قادم جديد الى المدينة ، من تلك الغابات المظلمة

وأيقنت وقتها انه قد تكون هذه هى الساعات الاخيرة لى فى هذه البلاد ، التى أستطيع أن أستمتع فيها بالحياة قبل القيام بالمهمة الكبرى التى جئت من أجلها هنا ، فمضيت ليلتى أرتشف من مناهل الاستمتاع ما وجدت الى ذلك سبيلا .

وطرت فى اليوم التالى الى « جوهانسبورج » وبعد نزولى من الطائرة وبعيدا عن الاجراءات الرسمية ، سمح لى بأن أدخل اتحاد جنوب أفريقيا لمدة ثلاثة أشهر لغرض التعرف على البلاد ومشاهدة معالمها .

***

ومضيت أسعى فى سبيل العثور على « فردريك » قبل أن يبدأ حزب المؤتمر الوطنى الافريقى اجتماعاته

وأخيرا عثرت عليه فى أحد شوارع المدينة وتتبعته الى النادى

الذى يقيم فيه ؟ وفى اليوم التالى تمكنت من العثور على وظيفة فى مطبخ النادى .

وحانت ساعة اللقاء ويبدو انه كان مخمورا جدا فلم يتعرف على ، وقد سمعته يتحدث الى مدير الفندق عندما رآنى قائلا له : جو .. حدثنى . ما هذا العدد الهائل من الزنوج الذين تستخدمونهم كل يوم ؟ . ثم مضى قائلا : « واذا كنا نعلم انه سيأتى اليوم الذى سيدوسون فيه علينا بأقدامهم ، فلماذا اذن نملأ أفواههم بالطعام .. يجب عليك أن تطرد هذا الزنجى فورا وتلقى به الى الشارع .. اننى أحتاج الى المساعدة . وأرجو أن تبعث لى بشخص آخر غير هذا الزنجى .. اننا لا نعبأ أن نغسل أطباقنا بأيدينا ، كما اننا لا نرغب فى رؤية هذا الزنجى هنا غدا » .

والتفت الى زملائه فى النادى وهو يوجه اليهم عباراته الاخيرة ، الذين أعربوا بدورهم عن تأييدهم له فى رأيه

***

ومضيت فى عملى ، كأنى لم أسمع شيئا وقمت بتنظيف المائدة .

وخرج فردريك وهو يردد قوله موجها حديثه الى مدير النادى بأنه لا ينسى ما قاله . ويأمر بطردى فورا فى الصباح .

وخرجت أبحث عنه فى الشارع . ولمحته يتمايل من فرط ما أسرف فى الشراب ، وفجأة رأيته يتعثر ويتهاوى على نفسه فى الطريق ساكنا لا يتحرك فى بركة من الامطار التى كانت تتساقط بشدة

***

وبدأت أدوسه تحت أقدامى ، وفجأة ، دقت الطبول ، معلنة فى جنوب أفريقيا أن ساعة الصفر قد حانت ، وان قرار المقاطعة قد بدأ تنفيذه وشعرت بالرثاء ، وليس بالكراهية ، نحو هذا الجسد الراقد فى عرض الطريق ، فتوقفت عن ايذائه ، وحملته برفق ليرقد فى أمان فى منزله .

هيئة قناة السويس

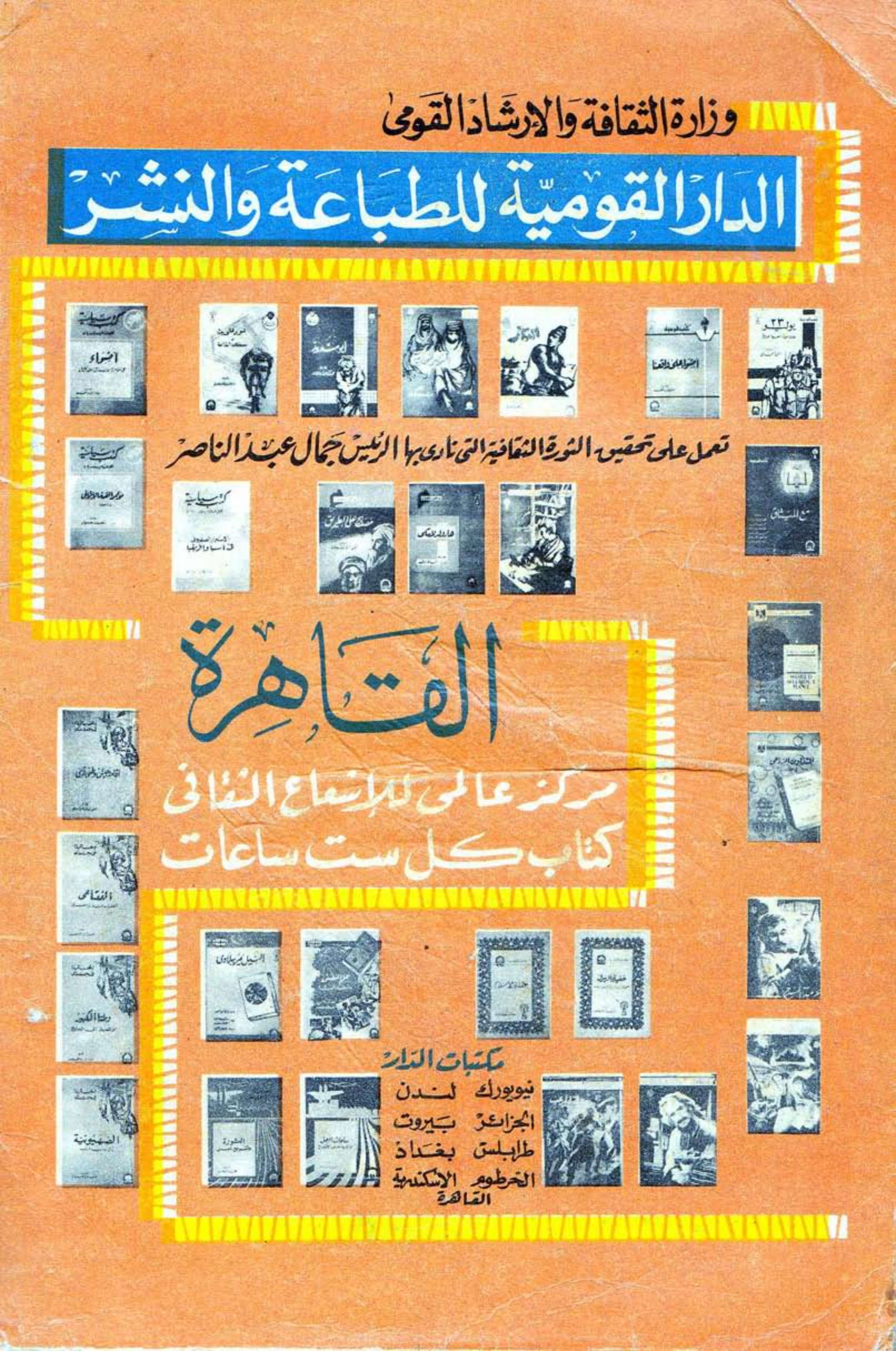
مناقصة عامة

بين مقاولى القطاع العام

تطرح هيئة قناة السويس فى مناقصة عامة عملية انشاء المركز الثقافى والاجتماعى والمتحف والمكتبة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات العملية بالحضور شخصيا الى مقر الهيئة بالاسماعيلية ـ الادارة الهندسية (المشروعات) وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثون جنيها .

وتقدم العطاءات باسم السيد / رئيس هيئة قناة السويس (الادارة الهندسية) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الاثنين ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦٣ مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره خمسة آلاف جنيه ولن يلتفت الى أى عطاء يقدم بعد هذا الموعد أو غير مصحوب بالتأمين الابتدائى المذكور .

الدار القومية للطباعة والنشر



وزارة الثقافة والإرشاد القومى
الدار القومية للطباعة والنشر
تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التى نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر
القاهرة
مركز عالمى للإشعاع الثقافى
كتاب كل ست ساعات
مكتبات الدار
نيويورك لندن
الجزائر بيروت
طرابلس بغداد
الخرطوم الإسكندرية
القاهرة